مَوَاقِفُ نِسَائِيَّةٌ خَالِدَةٌ

دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

بقلم

عِصَام محمد الشريف

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

دار الإيمان
اسكندرية

طبعة جديدة مزيدة ومنقحة

مَوَاقِفُ نِسَائِيَّةٌ خَالِدَةٌ
دُرُوسٌ وَعِبَرٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

محفوظة
جميع الحقوق

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
إسكندرية ٥٤٥٧٧٦٩

رقم الإيداع ٨٤٨٩ / ٢٠٠٠
الترقيم الدولى
977-331-018-3

دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

الحمد لله الذى هدي من الضلالة، وعلَّم من الجهالة، وأنعم بعد القلة، وأعز بعد الذلة، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيى ويميت، بيده الخير، وهو حى لا يموت، وهو على كل شيء قدير.

وأشهد أن نبينا محمداً عبده ورسوله، اللهم صلِّ على محمد النبى وأزواجه أمهات المؤمنين، وذريته، وأهل بيته، كما صليت على آل إبراهيم، إنك حميد مجيد:

أما بعد:

فقد رأيت أن أجمع مواقف بعض أمهات المؤمنين، ونساء الصحابة والتابعين، ومن بعدهن من النساء الصالحات، التى أجدها فى قراءاتى أو أسمعها من خلال الشريط الإسلامى، حيث إنها مواقف تحتاج منا جميعًا ـ والنساء خاصة ـ وقفة تدبر واستلهام للعبر والدروس من هذا الجيل الشامخ الذى يضرب لنا القدوة الحقيقية، فى وقت عزَّت فيه القدوة.

وهذه المواقف هى دروس ورسائل لكل نساء المسلمين، كى يتعلمن منها، ويلتمسن السلوك الصحيح فى معاملاتهن مع الله ومع المخلوقين.

إن سبر غور سير الصحابيات ومن بعدهن من النساء الصالحات لذة لا يعادلها لذة، وذلك لأن فيها كنوزاً ودروسًا مستفادة، تخدم الأجيال المتعاقبة؛ لاسيما فى عالمنا اليوم ، الذى يموج بحياة مادية يتسابق فيها الناس على متاع زائل زائف، فما أحرانا ـ رجالاً ونساءً ـ أن نعرج على هذه السيرة العطرة لنساء صالحات، لنري كيف أحب هؤلاء دينهن وربهن ورسولهن ﷺ ، وكيف عشن

لهذا الدين وكيف خدمن دعوة الله عز وجل.

وهذه النماذج التى بين يدى القارئ الكريم أمثلة حية على ما صنعه هذا المنهج الربانى فى النفس البشرية من تربية متوازنة متكاملة، وما يمكن أن يقدمه البيت المسلم للدعوة من بذل وعطاء وتضحية.

والله أسأل أن يكون لهذه المواقف الأثر البالغ فى نفوس نساء المسلمين ـ والديّنات بصفة خاصة لأنهن أقرب إلى الهدي من غيرهن ـ وأن يقرّ الله عينى وعين كل غيور على الإسلام برؤية جيل صالح من النساء، قد فهم دينه فهمًا صحيحًا لا التواء فيه ولا انحراف، والتزم به التزامًا حقيقيًا قائمًا على الاعتزاز بالدين والغيرة عليه، ودعا إليه انطلاقًا من أن الدعوة إلى الله عز وجل هى حياته وشغله الشاغل .

عصيت الله أيامى وليْلى ... وفى العصيان قد أسبلتُ ذيلى

فويلى إن حُرمت جِنَان عدْنٍ ... وويلى إن دخلتُ النار ويلى

﴿ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾.

[الأحقاف:١٥]

وصل اللهم على محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

كتبه

أبو أحمد/ عصام بن محمد الشريف

غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

الجمعة في ٢١ من المحرم ١٤٢٠ هـ

الموافق ٧ مايو ١٩٩٩م

موقف خديجة

رضي الله عنها

موقف خديجة رضي الله عنها

عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «أول ما بُدئ به رسول الله من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم، فكان لا يري رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ـ وهو التعبد ـ الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء، فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ قال: « فأخذنى فغطنى حتى بلغ منّى الجهد، ثم أرسلنى فقال: اقرأ. قلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثانية، حتى بلغ منى الجهد ثم أرسلنى، فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذنى فغطنى الثالثة، ثم أرسلنى فقال: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ » [العلق: ١ ـ ٣]، فرجع بها رسول الله يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها فقال: زملونى زملونى، فزملوه حتى ذهب عنه الروع.

فقال لخديجة وأخبرها الخبر: « لقد خشيت على نفسى »، فقالت خديجة: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق. فانطلقت به خديجة حتّي أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزي ـ ابن عمّ خديجة ـ وكان امرءاً تنصر فى الجاهلية، كان يكتب الكتاب العبرانى فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمى، فقالت له خديجة:

يا ابن عم، اسمع من ابن أخيك، فقال له ورقة: يا ابن أخي، ماذا تري؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأي، فقال له ورقة: هذا الناموس الذى نزَّل الله على موسى، ياليتنى فيها جذْعًا، ليتنى أكون حيًا إذ يخرجك قومك، فقال رسول الله ﷺ: « أو مُخْرجِيَّ هُمْ؟ » قال: « نعم، لم يأت رجلٌ قط بمثل ما جئت به إلا عودى، وإن يدركنى يومك أنصُرْك نصراً مؤزراً، ثم لم ينشب ورقة أن توفى، وفتر الوحى »[١].

وفى رواية مسلم: «كلا أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، والله إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف»[٢].

غريب الألفاظ:

فلق الصبح: أى ضياؤه.

فيتحنث: بمعني يتحنف أى يتبع الحنيفية دين إبراهيم.

لا يخزيك: الخزى هو الفضيحة والهوان.

الكلّ: هو من لا يستقل بأمره.

تكسب المعدوم: تعطى الناس مالا يجدونه عند غيرك، أو تكسب غيرك المال المعدوم أى تعطيه إياه تبرعًا.

الجذْع: الصغير من البهائم، والمراد هنا أى شابًا.

---

(١) رواه البخارى (١/ ٣٠ ، ٣١) بدء الوحى فى التفسير وفى التعبير، ومسلم (٢/ ١٩٧ _ ٢٠٤).
(٢) شرح النووى علي مسلم (٢/ ٢٠٠).

الدروس والعبر

أولاً: مكانة خديجة وفضلها رضي الله عنها:

روي مسلم عن علي رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريمُ بنتُ عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» .

قال أبو كريب: وأشار وكيع إلى السماء والأرض.

قال النووى رحمه ا: أراد وكيع بهذه الإشارة تفسير الضمير فى نسائها، وأن المراد به جميع نساء الأرض أى كل من بين السماء والأرض من النساء، والأظهر أن معناه أن كل واحدة منهما خير نساء الأرض فى عصرها(١) ، وهو ما ذهب إليه الحافظ فى الفتح(٢) .

وروى مسلم أيضًا عن أبى هريرة رضي الله عنه قال: أتي جبريل عليه السلام النبىﷺ فقال: يا رسول الله هذه خديجة أتتك معها إناء فيه إدامٌ أو طعامٌ أو شراب، فإذا هى أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عز وجل ومنّى وبشّرهاَ ببيت من الجنة من قصب(٣) لاصَخَبَ(٤) فيه ولا نَصَبَ(٥) .

قال السهيلى: قوله :«لا صخب ولا نصب»: مناسبة نفى هاتين الصفتين ـ أعنى المنازعة والتعب ـ أنه ﷺ لما دعا إلى الإسلام أجابت خديجة طوعًا فلم تحوجه إلى رفع صوت ولا منازعة ولا تعب فى ذلك بل أزالت عنه كل نصبٍ، وآنسته من كل وحشة، وهونت عليه كل عسير، فناسب أن يكون منزلها الذى

(١) النووى بشرح مسلم (١٥/ ١٩٨).
(٢) فتح البارى (٧/ ١٦٨).
(٣) قال جمهور العلماء: المراد به قصب اللؤلؤ المجوف (مسلم ١٥/ ٢٠٠).
(٤) الصخب: الصوت المختلط المرتفع.
(٥) النصب: المشقة والتعب.

بشرها به ربها بالصفة المقابلة لفعلها »[(١)].

وروى أيضًا عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غِرْتُ على امرأة ما غِرْتُ على خديجة، ولقد هَلَكَتْ قبل أن يتزوجنى بثلاث سنين، لِمَا كنت أسمعه يذكرها، ولقد أمره ربه عز وجل أن يُبشرها ببيت من قصب فى الجنة، وإن كان ليذبح الشاة ثم يُهديها إلى خلائلها[(٢)].

وفى رواية عنها أيضًا: ما غرت على نساء النبى ﷺ إلاَّ على خديجة وإنى لم أدركها.

قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «**أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة**».

قالت: فأغضبته يومًا، فقلت: خديجة، فقال رسول الله ﷺ: «**إنى قد رزقت حُبَّها**».

وفى رواية أيضًا عنها: استأذنت هالة بنت خويلد أخت خديجة على رسول الله ﷺ فعرف استئذان خديجة فارتاح لذلك، فقال: «**اللهم هالةُ بنت خويلد**» فغرت فقلت: وما تذكر من عجوز من عجائز قريش حمراء الشدْقين[(٣)] هلكت فى الدهر فأبدلك الله خيرًا منها.

قال النووى: قولها «فارتاح لها»: أى هش لمجيئها وسُر بها لتذكره بها خديجة وأيامها، وفى هذا كله دليل لحسن العهد وحفظ الود ورعاية حرمة الصاحب والعشير فى حياته ووفاته وإكرام أهل ذلك الصاحب.

(١) المصدر السابق (٧/ ١٧٢).
(٢) أى صدائقها، جمع خليلة وهى الصديقة.
(٣) قال النووى (١٥/ ٢٠٣): معناه عجوز كبيرة جدًا، حتى قد سقطت أسنانها من الكبر، ولم يبق لشدقها بياض شىء من الأسنان، إنما بقى فيه حمرة لثتها.

وروى البخارى عن عائشة رضي الله عنها قالت: ما غرت على أحد من نساء النبى ﷺ ما غرتُ على خديجة وما رأيتها ، ولكن كان النبى ﷺ يُكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يُقطِّعها أعضاء ثم يبعثها فى صدائق خديجة، فربمَّا قلت له: كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلاَّ خديجة! فيقول: « **إنها كانت وكانت، وكان لى منها ولد** » .

قال الحافظ: قوله : «**إنها كانت وكانت**» أى كانت فاضلة وكانت عاقلة ونحو ذلك، وعند أحمد من حديث مسروق عن عائشة رضي الله عنها: « **آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله ولدها إذ حرمنى أولاد النساء**» .

ثم قال رحمه الله: ومما كافأ النبى ﷺ به خديجة فى الدنيا أنه لم يتزوج فى حياتها غيرها، فروي مسلم من طريق الزهرى عن عروة عن عائشة قالت: « لم يتزوج النبى ﷺ على خديجة حتى ماتت »، وهذا مما لا اختلاف فيه بين أهل العلم والأخبار، وفيه دليل على عظم قدرها عنده، وعلى مزيد فضلها لأنها أغنته عن غيرها، واختصت به بقدر ما اشترك فيه غيرها مرتين، لأنه ﷺ عاش بعد أن تزوجها ثمانية وثلاثين عاماً انفردت خديجة منها بخمسة وعشرين عاماً وهى نحو الثلثين من المجموع، ومع طول المدة فصان قلبها من الغيرة ومن نكد الضرائر الذى ربما حصل له هو منه ما يشوش عليه بذلك، وهى فضيلة لم يشاركها فيها غيرها.

ومما اختصت به سبقها نساء هذه الأمة إلى الإيمان، فسنت ذلك لكل من آمنت بعدها، فيكون لها مثل أجرهن.

وقال النووى: فى هذه الأحاديث دلالة لحسن العهد، وحفظ الود، ورعاية حرمة الصاحب والمعاشر حيًا وميتًا، وإكرام معارف ذلك الصاحب[1].

ثانيًا: موقف الزوجة من زوجها إذا ألم به شيء:

لنا أن نتخيل ما حدث لرسول الله ﷺ... وكيف كانت نفسيته، وكيف كان خوفه مما ألَمَّ به عندما جاءه جبريل عليه السلام يأمره بأن يقرأ.

لذا عاد النبى ﷺ إلى بيته يرجف فؤاده، خائفًا، قائلاً: « زملونى زملونى »، حتى ذهب عنه ﷺ هذا الخوف، ثم أخذ يقص على زوجه خديجة رضى الله عنها الخبر.

فماذا كان موقف خديجة رضى الله عنها؟

كيف استقبلت زوجها وقد ألَمَّ به ما ألم؟

وكيف هوَّنت عليه، وهدَّأت من روعه، ووقفت بجانبه؟

فعلت ذلك وهى تعطى القدوة العملية، والمثال الرائع، والموقف الصلب الخالد إلى يوم الدين، عندما تقف الزوجة بجوار زوجها، تؤازره وتسانده وتقويه.

لَمْ تعرض عنه، ولم تصفه بالجنون مثلاً !

لم تتخلي عنه، أو يشغلها شيء عنه!

بل وقفت موقفًا سيبقي خالدًا... لتتعلم منه النساء على مر الأيام، كيف تقف الزوجة بجوار زوجها إذا ألمت به مصيبة أو أصابه كرب أو هم أو مكروه.

ماذا فعلت خديجة رضى الله عنها إذن؟ .

---

(١) فتح البارى (٧/ ١٧٠ ـ ١٧١).

أقسمت بالله تعالى أن الله عز وجل لن يخزيه ولن يتخلي عنه، ثم أخذت في ذكر أخلاقه وصفاته والتى بسببها لن يخزيه الله تعالى أبداً.

قال الحافظ رحمه الله : وفي هذه القصة من الفوائد:

استحباب تأنيس من نزل به أمرٌ، بذكر تيسيره عليه، وتهوينه لديه.

وأن من نزل به أمر استُحب له أن يُطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه.

ثم قال رحمه الله : ثم استدلت على ما أقسمت عليه من نفى ذلك أبداً، بأمر استقرائى، وصفته بأصول مكارم الأخلاق، لأن الإحسان إما إلى الأقارب أو إلى الأجانب، وإمّا بالبدن أو بالمال، وإما على من يستقل بأمره أو من لا يستقل[(١)].

وقال النووى رحمه الله : قال العلماء رضى الله عنهم: معني كلام خديجة رضى الله عنها: إنك لا يصيبك مكروه لما جعل الله فيكِ من مكارم الأخلاق وكرم الشمائل، وذكرت دروبًا من ذلك، وفى هذا دلالة على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب السلامة من مصارع السوء، وفيه مدح الإنسان فى وجهه فى بعض الأحوال لمصلحة، وفيه تأنيس من حصلت له مخافة من أمر، وتبشير وذكر أسباب السلامة له، وفيه أعظم دليل وأبلغ حجة على كمال خديجة رضى اللهعنه، وجزالة رأيها وقوة نفسها، وثبات قلبها، وعظم فقهها[(٢)].

هكذا فلتكن الزوجة الصالحة، تقف مع زوجها فى محنته وفى كربه وفى مرضه وفى ابتلائه فى دينه أو دنياه، تقف معه تتحمل المسئولية كاملة بكل

---

(١) فتح البارى (١/ ٣٣ ـ ٣٤).

(٢) مسلم بشرح النووى (٢/ ٢٠٢).

شجاعة وثبات ورباطة جأش، تقويه وتسليه، وتذكره بالله، وتوصيه بتقواه سبحانه وتعالى حتى لا يميل عن طريق الإيمان.

لا تتخلي عنه وهو يريد من يقف بجواره.

ولا تنعزل عنه وهو يريد من يأخذ بيديه.

لا تيئسه من رحمة الله تعالى وقرب فرجه، فهو يريد من تبشره وتطمئن قلبه.

بل تأخذ بيديه وتعينه على اجتياز المحنة، وتذكره بأعماله الصالحة ليتوسل بها إلى الله عز وجل كي يرفع بلاءه عنه.

وتعدد له خصال الخير عنده، وأنه إن ابتلى من الله فلتكفير ذنوبه ورفع درجاته.

تقابله دائمًا بالابتسامة اللطيفة، والوجه البشوش، فتسكن نفسه ويطرد شيطانه.

ثالثًا : عظم مكانة الزوج :

وقفت خديجة رضى الله عنها مع زوجها ﷺ موقفاً ينم عن عقلية امرأة تتسم بقوة الإيمان، وحسن البصيرة، فى الوقت الذى يبرز لنا فيه أيضًا عظم مكانة الزوج فى الإسلام، وذلك حتى تقف كل زوجة مع زوجها مثل هذا الموقف.

وقد رفع الإسلام مكانة الزوج إلى مرتبة عالية، تحتاج من المرأة معها إلى وقفة تدبر وإجلال:

فعن عبد الله بن أبى أوفي رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ :

« **والذى نفس محمد بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها،**

ولو سألها نفسها وهى على قتب لم تمنعه نفسها » (١) .

فسبحان الله! فقد ربط النبى ﷺ حق الله بحق الزوج أولاً، فكل امرأة مقبلة على كتاب الله عز وجل وسنة نبيه ﷺ، ذاكرة لله عز وجل، محصلة للعلم الشرعى، وهى فى نفس الوقت مضيعة لبعض حقوق زوجها، أو غير طالبة لرضاه، فقد أخطأت الطريق إلى الله، حتى تؤدى حق زوجها أولاً فى طاعة الله تعالى بطلب رضاه ، والقيام بحقوقه.

وعن معاذ رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لا تؤذى امرأة زوجها فى الدنيا، إلا قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله، فإنما هو عندك دخيل، يوشك أن يفارقك إلينا**» (٢) .

فسبحان الله! من الذى جنَّد زوجة الرجل من الحور العين فى الآخرة، حتى تدعو على زوجته من أهل الدنيا التى تؤذيه؟! إنما هو الله، وما ذلك إلاَّ لعظم مكانة الزوج، وعن أبى أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال :

«**ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم: العبد الآبق حتى يرجع، وامرأة باتت وزوجها عليها ساخط، وإمام قوم وهم له كارهون »** (٣) .

قال المناوي ـ رحمه الله ـ: «ثلاثة لا تجاوز صلاتهم آذانهم» فى رواية رؤوسهم؛ أى لا ترتفع إلى السماء وهو كناية عن عدم القبول كما صرح به فى رواية الطبرى (٤) .

---

(١) رواه أحمد، وابن ماجه، وغيرهما (الصحيحة ١٢٠٣).
(٢) رواه الترمذى، وأحمد، وابن ماجه، وصححه الألبانى (الصحيحة ١٧٣).
(٣) رواه الترمذى، وحسنه الألبانى (مشكاة المصابيح ١١٢٢).
(٤) فيض القدير (٣/ ٣٢٣).

وعن حُصين بن محصن قال: حدثتني عمتي قالت: أتيت رسول الله ﷺ فقال: «أي هذه، أذات بعل؟ ». قلت: نعم. فقال: «كيف أنت منه؟» قالت: ما آلوه (١) إلا ما عجزت عنه، قال: « فانظري أين أنت منه، فإنما هو جنتك ونارك» (٢).

فانظري أيتها المرأة المسلمة ـ رحمنا الله وإياك ـ كيف أن الزوج سبب لدخولك الجنة بطاعتك له في طاعة الله والقيام بحقوقه، وسبب لدخولك النار إذا ضيعت حقوقه ورضاه.

وعن النسائي أن رسول الله ﷺ قال: « ونساؤكم من أهل الجنة الودود الولود العئود على زوجها، التي إذا غضب جاءت حتى تضع يدها في يد زوجها وتقول: لا أذوق غُمضاً حتى ترضي » (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد، ولو كان أحدٌ ينبغي له أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لما عظَّم الله من حقه» (٤).

وعن أنس بن مالك أن النبي ﷺ قال: « لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من مقدمه إلى مفرق رأسه قرحة

---

(١) أي لا أقصر في خدمته وطاعته.

(٢) رواه أحمد، والنسائي، وقال الألباني: إسناده صحيح (آداب الزفاف ص ٢٨٥).

(٣) قال الألباني: للحديث شواهد يتقوى بها (الصحيحة ٢٨٧).

(٤) رواه ابن حبان، وحسنه الألباني في إرواء الغليل (١٩٩٨).

تنبجس بالقيح والصديد ثم استقبلته تلحسه ما أدت حقه»[(١)].

فهل تدبرت المرأة هنا أيضاً، كيف أن المرأة لو جاز لها السجود ـ وهو عبادة لا تجوز لغير الله ـ لكان أولي الناس بذلك هو الزوج؟! فهل من مكانة أعظم للزوج من هذه المكانة؟!

رابعاً : أهمية مكارم الأخلاق :

جمع الله تعالى فى كتابه المبارك مكارم الأخلاق خير جمع، وبيَّنها لعبادة أحسن بيان، وسار بها رسول الله ﷺ خير سيرة، وعامل بها الناس أفضل معاملة.

لذا فقد لزمنا التفقه فى كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فنتدبر الآيات، ونتأسي به ﷺ.

لذا كان من الأمور المهمة لكل مسلم ومسلمة أن يتعلم مكارم الأخلاق ويتفقه فيها وذلك للأسباب الآتية:

١ ـ التأسى برسول الله ﷺ الذى قال: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق» وفى رواية : «إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[(٢)].

٢ ـ الترقى إلى أعلى درجات الإيمان، وذلك لقوله ﷺ : «أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً وخياركم خياركم لنسائهم»[(٣)].

٣ ـ تثقيل الميزان يوم القيامة، وذلك لقوله ﷺ : «ما من شيء يوضع فى

---

(١) قال المنذرى: رواه أحمد بإسناد جيد (إرواء الغليل ٧/ ٥٥).

(٢) رواه أحمد فى المسند (٢/ ٨، ٣)، والبخارى فى الأدب المفرد، وصححه الألبانى (صحيح الأدب المفرد برقم ٢٠٧، ٢٧٣).

(٣) أخرجه أبو داود (٤٦٨٢)، والترمذى (١١٦٢)، وقال: حسن صحيح، وصححه الألبانى فى الصحيحة (٢٨٤).

الميزان أثقل من خلق حسن »(١).

٤ ـ اغتنام الأجر والثواب، وذلك لقوله ﷺ : « إن المؤمن ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم القائم »(٢).

٥ ـ القرب من مجلس النبى ﷺ يوم القيامة، وذلك لقوله ﷺ : « إن من أحبكم إلىَّ وأقربكم منى مجلسًا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقًا، وإن أبغضكم إلىَّ وأبعدكم منى مجلسًا يوم القيامة الثرثارون والمتشدقون والمتفيقهون »(٣).

٦ ـ الدخول فى زمرة أحب عباد الله إلى الله، وذلك لقوله ﷺ : «أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقًا»(٤).

ولا يخفي على أحد أهمية مكارم الأخلاق مع الخلق بدءاً من الوالدين والزوج والأولاد، وانتهاءً بالمدعوين.

فإذا كان للشخص رصيد طيب من حسن الخلق، كان له القبول والحب عند الناس.

خامسًا : أهمية إدخال السرور على المسلم :

إن موقف خديجة رضى الله عنها من رسول الله ﷺ عندما قالت له: «كلا والله ما يخزيك الله أبداً..» لهو إشارة إلى أهمية إدخال الطمأنينة والسرور على الزوج المسلم إذا ألمَّ به ما يؤلمه أو يزعجه، فما بالنا لو كان ذلك فى محيط المجتمع المسلم كله.

---

(١) أخرجه الترمذى (٢٠٠٤)، وأبو داود (٢٧٩٩)، وغيرهما، وصححه الألبانى (صحيح سنن الترمذى برقم (١٦٢٩، ٢/ ١٩٤).

(٢) رواه أبو داود (٤٧٩٨)، وأحمد (٦/ ٩٠)، وغيرهما، وصححه الألبانى (الصحيحة ٨٧٦).

(٣) أخرجه الترمذى (٢٠١٨)، وهو حديث حسن (الصحيحة ٧٩١).

(٤) رواه الطبرانى، وحسنه الألبانى فى الصحيحة (١٢٢٨)، وصحيح الجامع (٩٦٢).

لذا فقد أولي الإسلام هذه القضية اهتماماً كبيراً، نلحظه في هذا الحديث العظيم.

فعن ابن عمر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **أحب الناس إلى الله أنفعهم للناس، وأحب الأعمال إلى الله عز وجل سرورٌ يُدخله على مسلم، أو يكشف عنه كربة، أو يقضى عنه دَيناً، أوتطرد عنه جوعًا، ولأن أمشى مع أخ في حاجة أحب إليَّ من أن أعتكف في هذا المسجد شهراً ـ يعني مسجد المدينة ـ ، ومن كف غضبه ستر الله عورته، ومن كظم غيظاً ولو شاء أن يمضيه أمضاه ملأ الله قلبه رجاءً يوم القيامة، ومن مشي مع أخيه في حاجة حتى تتهيأ له، أثبت الله قدمه يوم تزول الأقدام ، وإن سوء الخلق يفسد العمل، كما يفسد الخل العسل** » (١) .

فالشاهد من هذا الحديث: قوله ﷺ عن أحب الأعمال إلى الله عز وجل ومنها: « **سرور يدخله على مسلم** »، ولنا أن نتخيل ماذا يُحدث هذا السرور في نفوس الناس ؟!!.

ولابد أن يُعلم أن إدخال السرور على المسلمين له مظاهر كثيرة منها:

١ ـ قضاء الحوائج :

عن أبي هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: « **من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفّس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه** » (٢) .

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في قضاء الحوائج، والطبراني، وحسنه الألباني (الصحيحة برقم ٩٠٦).
(٢) رواه مسلم (٢٦٩٩) ، والترمذي (١٩٩٥)، وأحمد في مسند (٢/ ٥٠٠).

٢ ـ إيثار الآخرين علي النفس :

فقد مدح الله عز وجل الأنصار بهذه الصفة الكريمة فقال: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ﴾ [الحشر: ٩].

قال ابن كثير: «أى يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدءون بالناس قبلهم فى حال احتياجهم إلى ذلك»(١).

٣ ـ التهنئة في كل مناسبة طيبة :

كالزواج، والعود من السفر، والمعافاة من المرض، وإذا رزق بمولود ، والتهنئة بالعيد ونحو ذلك.

٤ ـ الزيارة في الله :

عن أبى هريرة ﷺ عن رسول الله ﷺ قال: « إن رجلاً زار أخًا له فى قرية أخري ، فأرصد الله تعالى على مدرجته ملكًا فلما أتى عليه قال: من تريد؟ قال : أريد أخًا لى فى هذه القرية: قال: هل لك عليه من نعمة تربُّها عليه؟ قال: لا، غير أنى أحببته فى الله تعالى قال: إنى رسول الله إليك بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه »(٢).

٥ ـ البشاشة عند اللقاء :

وذلك لقوله ﷺ : «لا تَحْقِرن من المعروف شيئًا ولو أن تلقي أخاك بوجه طلق»(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٣٨).
(٢) رواه مسلم (١٦/ ١٢٤)، وأحمد (٢/ ٢٩٢).
(٣) رواه مسلم (١٦/ ١٧٧)، وأحمد فى مسنده (٣/ ٣٨٣).

وفى رواية للترمذى: «**تبسمك فى وجه أخيك لك صدقة**»[(١)].

٦ ـ عيادة المريض :

عن ثوبان ﷺ عن النبى ﷺ قال: «**إن الرجل إذا عاد أخاه المسلم لم يزل فى خرفة**[(٢)] **الجنة حتى يرجع**» قيل: يا رسول الله وما خرفة الجنة؟ قال: «**جنَاهَا**»[(٣)].

٧ ـ إجابة الدعوة :

قال ﷺ: «**من دُعى فلم يجب فقد عصي الله ورسوله**»[(٤)].

٨ ـ تقديم الطعام :

قال بعض السلف : الاجتماع على الطعام من مكارم الأخلاق.

وقال على بن أبى طالب رضى الله عنه : لأن أجمع إخوانى على صاع من طعام أحبّ إليّ من أن أعتق رقبة.

سادسًا : المرأة بين نقصان العقل ورجاحته :[(٥)]

يعتقد البعض أن حديث النبى ﷺ: «**... ما رأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لبُ منكن**»[(٦)]:

فيه إهانة للمرأة، وحطّ من كرامتها، ومنزلتها فى المجتمع! .

---

(١) صححه الألبانى (صحيح سنن الترمذى برقم ١٥٩٤، والصحيحة برقم ٥٧٢).
(٢) الخرفة: هى الثمرة الناضجة.
(٣) رواه مسلم (١٦/ ١٢٥).
(٤) رواه مسلم بمعناه (٩/٣٧).
(٥) للمؤلف كتاب حول هذا الموضوع بعنوان: «النساء أكثر أهل النار... الأسباب وطرق النجاة ـ طبعة دار الإيمان ـ اسكندرية» فليراجع.
(٦) رواه البخارى ومسلم والبيهقى فى السنن الكبري (١٠/ ١٤٨)، وغيرهم.

(لكن الحقيقة غير ذلك تمامًا، لأن هذا الحديث يشرح لنا طبيعة المرأة من ناحية التكوين، فالمرأة بطبيعة تكوينها تغلب عليها العاطفة ، وهذا ليس عيبًا، ولكنه ميزة تناسب مهمتها فى الحياة؛ لأنه مفروض بطبيعتها أن تعطى من الحنان أكثر، ومن التفكير العقلى أقل.

إنها هى التى تحنو، وهى التى تمسح الدموع، وتضع مكانها الابتسامة.

وهى التى تمسح تعب اليوم وشقاءه عن زوجها وأولادها، ولا يتم هذا بالعقل ولكنه يتم العاطفة.

إن هذا لا يعنى طعنًا فى فكر المرأة وذكائها، وإن كان يعنى كشفًا عن طبيعتها.

ويهمنى أن ألقى ضوءاً على حدث هام كان للمرأة دور كبير فى حسمه، مما يدل على رجاحة العقل وحسن التصرف، وذلك الحدث هو صلح الحديبية.

حينما تم توقيع صلح الحديبية، أمر رسول الله ﷺ أن يذبحوا الهدى، ويحلوا إحرامهم، ولكن الحمية الدينية فى داخلهم، والصلح الذى منعهم من الطواف ببيت الله الحرام، أشعلت ثورة فى صدورهم، منعتهم أن يروا الحكمة فى توقيع هذا الصلح، وكيف أن الله سبحانه وتعالى جعل فى هذا الصلح إشارة لانتصار الإسلام وفتح مكة.

نقول إن رسول الله ﷺ أمر المؤمنين بأن يذبحوا الهدى، ويحلوا إحرامهم، ولكن أحداً منهم لم يفعل ذلك.

فدخل الرسول ﷺ على زوجته أم سلمة وهو شديد الغضب ، فقالت: مالك يا رسول الله؟ فلم يرد، فكررتها عدة مرات.

حتى قال ﷺ: «**هلك المسلمون، أمرتهم بأن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا**» فقالت أم سلمة: يا رسول الله، لا تلمهم فإن داخلهم أمرٌ عظيم مما أدخلت على نفسك من المشقة فى أمر الصلح ورجوعهم بغير فتح.. يا نبى الله أُخرج ولا تكلم أحداً منهم، وانحر هديك، واحلق رأسك.

ففعل رسول الله ﷺ ذلك، وقام المسلمون فنحروا وحلقوا.

وهكذا نري أن رسول الله ﷺ أخذ برأى زوجته أم سلمة فى أمر من أشق الأمور وأشدها، ولو كان عقلها ناقصاً ـ نقص ذكاء أو نقص استيعاب ـ ما نزل رسول الله ﷺ على رأيها، ولكن نقص العقل فى الحديث الشريف معناه: أنها تفعل أشياء يقف العقل عندها، وإنما تفعلها بالعاطفة، ولو لم تكن العاطفة أقوي من العقل فى المرأة لما سهرت الليالى بلا نوم بجوار ابنها المريض، ولما عاشت وتحملت تبقي مع زوجها وأولادها فى الأزمات، ولما استطاعات أن تتحمل مشقة التربية وصعابها)[(١)].

(١) المرأة فى القرآن الكريم للشيخ محمد متولى الشعراوى (ص ٤٨ : ٥٥) بتصرف واختصار.

موقف أم سليم رضي الله عنها عند وفاة ولدها

موقف أم سليم رضي الله عنها عند وفاة ولدها

قال أنس رضي الله عنه:

«قال مالكٌ أبو أنسٍ لامرأته أمّ سُلَيم ـ وهي أمُّ أنس ـ إنَّ هذا الرجلَ ـ يعني النبي ﷺ ـ يُحرّم الخمر فانْطَلَق حتى أتى الشام فهلك هناك.

فجاء أبو طَلْحَة ، فخطب أم سُلَيم، فكلّمها في ذلك، فقالت: يا أبا طلحة! ما مِثْلُك يُرَدُّ ، ولكنّك امرؤٌ كافرٌ، وأنا امرأةٌ مسلمةٌ لا يصلُحُ لي أن أتزوّجك! فقال: ما ذَاكَ دَهْرَكَ! قَالت: وما دهرى؟ قال: الصفراءُ والبيضاءُ[(١)] ! قالت: فإني لا أريدُ صفراء ولا بيضاء، أريدُ منك الإسلامَ، فإنْ تُسلم فذاك مَهْرِي، ولا أسألك غيره، قال: فمن لي بذلك؟ قالت: لك بذلك رسولُ الله ﷺ.

فانْطَلَق أبو طلحةَ يريد النبيِّ ﷺ، ورسول الله ﷺ جالسٌ في أصحابه، فلمَّا رآه قال: جاءكم أبو طلحة غُرَّةُ الإسلامِ بين عينيه، فأخْبَرَ رسولَ الله ﷺ بما قالت أُمُّ سُلَيم، فتزوَّجها على ذلك.

قال ثابت: (وهو البُناني أحدُ رواة القصّة عن أنس): فما بلَغَنَا أنّ مهراً كان أعظمَ منه أنّها رضِيَتْ الإسلامَ مهراً.

فتزوَّجها وكانت امرأةً مَليحةَ العينين، فيها صِغَرٌ، فكانت معه حتى وُلِد له

(١) مراده بذلك إغراءها بالذهب والفضة والمال الوفير.

بنيٌّ[(١)]، وكان يحبُّه أبو طلحة حباً شديداً، ومرض الصبيُّ مرضاً شديداً، وتواضَعَ أبو طلحة لمرضه أو تَضَعْضَعَ له، فكان أبو طَلْحَة يقومُ صلاةَ الغداةِ يتوضَّأُ، ويأتي النبيَّ ﷺ فيُصَلِّي معه، ويكون معه إلى قريب من نصف النهار، ويجيء يقيل ويأكُلُ، فإذا صلّى الظهرَ تهيَّأ وذهب، فلم يَجِئْ إلى صلاة العَتَمَة.

فانطلق أبو طلحَة عَشِيَّةً إلى النبي ﷺ (وفي رواية: إلى المسجد) ومَات الصبيُّ فقالت أمُّ سُلَيم: لاَ ينعينَّ إلى أبي طلحة أحدٌ ابنهَ حتى أكونَ أنا الذي أنعاه له، فَهيَّأت الصبيَّ، فَسَجَّت عليه، ووَضَعَتْهُ في جانب البيت، وجاء أبو طَلْحَةَ من عند رسولِ الله ﷺ حتى دَخَلَ عليها ومعه ناسٌ من أهلِ المسجدِ من أصحابه فقال: كيف ابني؟ فقالت: يا أبا طلحَة ما كان منذ اشْتَكَى أسكنَ منه الساعة وأرجو أن يكون قد اسْتَرَاح! فأَتَتْهُ بعشَائه فقَربته إليهم فتَعَشَّوا، وخرج القومُ.

قال: فقامَ إلى فراشه فوضعَ رأسه، ثم قامتْ فَتَطَيَّبَتْ، وتَصَنَّعَتْ له أحسنَ ما كانت تصنعُ قبلَ ذلك، ثم جاءت حتى دَخَلت معه الفراش، فما هو إلاَّ أن وجد ريحَ الطِّيبِ، كان منه ما يكونُ من الرجل إلى أهله.

فلمَّا كان آخرَ الليل قالت: يا أبا طلحةَ أرأيتَ لو أنَّ قوماً أعارُو قوماً عاريَّةً لهم، فسألوهم إيّاها، أكان لهم أن يَمْنَعُوهم؟ فقال: لا، قالت: فإن الله عزّ وجل كان أعارك ابنك عاريةً، ثم قبضه إليه، فاحْتَسِبْ واصبر! فَغَضبَ ثم قال: تَرَكْتني حتى إذا وَقَعْتِ بما وقَعْتِ به نَعَيْتِ إليَّ ابني! فاسترجع!، وحمدَ الله، فلمَّا أصْبحَ اغتْسَلَ، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فصلّى معه فأخبره، فقال رسولُ

---

(١) ذكر بعض أهل العلم أنه أبو عمير الوارد ذكره في «الصحيح» في حديث «يا أبا عمير ما فعل النغير».

اللهِ ﷺ: « **بارك الله لكما في غابر ليلتكما** »، فَثَقَلَتْ من ذلك الحَمْلِ، وكانت أمُّ سُلَيم تسافرُ مع النبيِّ ﷺ، تخْرجُ إذا خَرَجَ، وتدخلُ معه إذا دخل، وقال رسول الله ﷺ: « **إذا وَلَدت فأتوني بالصبيِّ** » .

قال: فكان رسولُ الله ﷺ في سَفَر وهي معه، وكان رسولُ الله ﷺ إذا أتى المدينة من سَفَرٍ لا يطرقُها طُروقًا، فَدَنَواْ من المدينة، فضربها المخاضُ، واحْتَبَس عليها أبو طلحة، وانطلق رسولُ الله ﷺ، فقال أبو طلحة: يا ربِّ إنك لتعلمُ أنَّه يُعجبني أن أخرجَ مع رسولِك إذا خَرَجَ، وأدخُل معه إذا دَخلَ، وقد احْتَبَسْتُ بما ترى.

قال تقولُ أمُّ سُلَيم: يا أبا طلحة ما أجدُ الذي كنت أجدُ فانطلقا، قال: وضَرَبها المخاضُ حين قَدِمُوا، فَوَلَدت غلامًا، وقالت لابنها أنَس: يا أنس! لا يَطْعمُ شيئًا حتى تَغْدُوا به إلى رَسول الله ﷺ: وبَعَثَتْ معه بتَمَراتٍ، قَال: فبات يبكي، وبتُ مُجْنِحًا عليه، أكالئُه حتى أصبحتْ.

فغدوتُ إلى رسول الله ﷺ، وعليه بُرْدَةٌ، وهو يَسِمُ إبلاً أو غنمًا قَدمتْ عليه، فلمَّا نَظَرَ إليه، قال لأنس: «**أوَلَدَتْ بنت مِلْحان؟**» قال : نعم، فقال: «**رُوَيدك أفرغْ لك**»، قال: فألقى ما في يده، فتناولَ الصبيَّ، وقال: «**أمعه شيءٌ؟**» قالوا: نعم، تَمَراتٌ، فأخذ النبي ﷺ بعض التمر فَمَضغهنَّ، ثم جمع بُزاقَه، ثم فَغَرَ فاه، وأوْجَرَه إياه، فجعل يُحنِّك الصبيَّ، وجعلَ الصبيُّ يتلمَّظ: يَمُصُّ بعض حلاوةِ التمر وريق رسول الله ﷺ ، فكنَّ أولَ مَنْ فتح أمعاءَ ذلك الصبيِّ على ريق رسول الله ﷺ فقال: « **انظروا إلى حُبِّ الأنصار التمر**»، قال: «قلت: يا رسول الله سَمِّه»، قال: فمسح وجهه وسماه عبد الله، فما كان في الأنصار شابٌّ أفضلُ منه، قال: فخرج منه رَجلٌ كثير، واستشهد عبدُ الله بفارس»، وعند

البخاري (١٣٠١) قال سفيان: «فقال رجل من الأنصار: فرأيت لهما تسعة أولاد كلُّهم قد قرأ القرآن»[(١)] . اهـ. أي من ولد ولدهما عبد الله .

(١) أخرجه الطيالسي (٢٠٥٦)، والسياق له ومن طريقه البيهقي (٤/ ٦٥ ـ ٦٦) وابن حبان (٧٣٥)، وأحمد (٣/ ١٠٥ ـ ١٠٦، ١٨١، ١٩٦، ٢٨٧، ٢٩٠)، ورواه البخاري (٣/ ١٣٢ ـ ١٣٣)، ومسلم (٦/ ١٧٤ ـ ١٧٥) مختصراً، وروي النسائي (٢/ ٨٧) قسماً من أوله.
هذا تخريج الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني في «أحكام الجنائز» (ص ٣٨) ملخصاً، حيث بين زيادات كل واحد من المذكورين، وقد أضفت الزيادة الأخيرة التي عند البخاري لصلتها وأهميتها، وموضع الحديث في «صحيح البخاري» الطبعة السلفية ـ مع الفتح ـ عند رقم (١٣٠١)، (٥٤٧٠)، وفي «صحيح مسلم» طبعة محمد فؤاد عبد الباقي. رقم (٢١٤٤) [٢٢] (ص ١٦٨٩ ـ ١٦٨٩٠) (١٠٧) (ص١٩٠٩ ـ ١٩١٠)، وقد أطال محقق «صحيح ابن حبان» النفس في تخريج هذا الحديث فراجعه ـ غير مأمور ـ (١٦/ ١٥٧).
(نقلاً عن كتاب «امرأة تهفو لمثلها القلوب» لخالد الشايع).

الدروس والعبر

أولاً: مكانتها وفضلها رضي الله عنها:

إن ما خصَّها النبي ﷺ به من التكريم والتقدير لِيُعلم منه مباشرة مكانتها وفضلها رضي الله عنها، وإلاَّ لماذا خصَّها النبي ﷺ بكل ذلك؟!

* عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ لا يدخل على أحد من النساء إلا على أزواجه، إلا على أم سُليم فإنه كان يدخل عليها، فقيل له في ذلك فقال: «إني أرحمهما، قُتل أخوها وأبوها معي»» (١).

* وعن أنس قال: كان النبي ﷺ يدخل بيت أم سليم فينام على فراشها وليست فيه. قال: فجاءت ذات يوم فنام على فراشها فأُتيت، فقيل لها: هذا النبي ﷺ نام في بيتك على فراشك (٢).

وجمهور العلماء على أن أم سليم وأختها أم حرام كانتا من محارمه.

قال النووي رحمه الله كانتا لخالتين لرسول الله ﷺ مَحْرَمين إمَّا من الرضاع، وإمَّا من النسب فتحل له الخُلوة بهما (٣).

* وعنه رضي الله عنه أيضًا قال: كان النبي ﷺ يزور أم سليم أحيانًا فتدركه الصلاة، فيصلي على بساط لنا وهو حصير ينضحه بالماء.

* وعنه أيضاً قال: زار رسول الله ﷺ أم سليم فصلى في بيتها تطوعاً، وقال: «يا أم سليم إذا صليت المكتوبة فقولي: سبحان الله عشراً، والحمد لله عشراً،

---

(١) الإصابة في تمييز الصحابة (٤/ ٤٦١).
(٢) رواه مسلم - كتاب الفضائل برقم (٢٣٣١).
(٣) صحيح مسلم بشرح النووي (١٦/ ١٠).

والله أكبر عشراً، ثم سلى الله ما شئت، فإنه يقال لك: نعم، نعم، نعم».

* كان ﷺ يتفقدها بالسؤال إذا غابت عنه، فعندما حج النبي ﷺ لم تحج معه أم سليم، فقال لها: «ما لأم سليم لم تحج معنا العام؟» قالت: يا نبي الله كان لزوجي ناضحان، فأما أحدهما فحج عليه، وأما الآخر فتركه يسقى عليه نخله. قال ﷺ: «فإذا كان رمضان، أو شهر الصوم، فاعتمري فيه، فإن عمرة فيه مثل حجة أو قال: تقضي مكان حجة» (١).

* ومن أعظم ما يدل على مكانة أم سليم وفضلها رضي الله عنها بشرى رسول الله ﷺ لها بالجنة، فعن أنس رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «دخلتُ الجنة فسمعت خَشْفَةً (٢)، فقلت: ما هذا؟ فقيل: الرميضاء بنت ملحان»، وفي رواية للبخارى: «دخلت الجنة فإذا أنا بالرميضاء امرأة أبى طلحة» (٣)، وفي رواية لمسلم قال: «أريتُ الجنة فرأيت امرأة أبى طلحة» (٤).

* وكان ﷺ يخصها بشعره الشريف عندما يحلق شعر رأسه، فعن أنس ابن مالك رضي الله عنه قال: لما حلق رسول الله ﷺ رأسه بمنى، أخذ شق رأسه الأيمن بيده، فلما فرغ ناولنى فقال: «يا أنس! انطلق بهذا إلى أم سليم» (٥).

* وكثيراً ما كان يدعو رسول الله ﷺ لأم سليم بالخير؛ فقد قالت رضي الله عنها: «لقد دعا لى رسول الله ﷺ حتى ما أريد زيادة».

وعندما منحته ابنها أنس ليخدمه مضى يدعو لها كما قالت: «فما ترك خير آخرة ولا دنيا إلا دعا لى به» (٦).

---

(١) الطبقات الكبري لابن سعد (٨/ ٤٣٠)
(٢) الخشفة: الصوت ليس بالشديد.
(٣) كتاب فضائل الصحابة ـ فتح البارى (٧/ ٥٠).
(٤) كتاب فضائل الصحابة (٤/ ١٩٠٨)
(٥) مسند الإمام أحمد (٣/ ١٤٦)
(٦) سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٩)

*ومما خصها به النبي ﷺ أيضًا أنه كان يضمها إلى بعض نسائه في الأسفار الطويلة، فعن أنس رضي الله عنه قال: أتى النبي ﷺ على بعض نسائه ومعهن أم سليم فقال: «ويحك يا أنجشه، رويدك سوْقًا بالقوارير»[(١)] .

مما تقدم يتبين لنا تلك المكانة الرفيعة التى تبوأتها أم سليم رضي الله عنها، وهذا الفضل الذى نالته ووصلت إليه، فليهنك السعد يا أم سليم!

ثانيًا: الاستعلاء بالإسلام عما عداه:

في قصة زواج أم سليم رضي الله عنها من أبى طلحة رضي الله عنه أعلى مثال، وأصدق خبر، في استعلاء المرأة المسلمة بدينها، واعتزازها به، عن كل حطام الدنيا، وعن كل مخلوق، وعن كل متعة زائلة في الدنيا بلغت ما بلغت.

فعندما تقدم إليها أبو طلحة يريد الزواج منها قالت له: «لم أكن أتزوجك وأنت مشرك. أما تعلم يا أبا طلحة أن ألهتكم التى تعبدون ينحتها عبد آل فلان النجار، وأنكم لو أشعلتم فيها نارًا لاحترقت»، وقالت: «فهل لك أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وأزوِّجك نفسى، لا أريد منك صداقًا غيره». قال: لا والله ما هذا دهرك[(٢)] . قالت: فما دهرى؟ قال: دهرك في الصفراء والبيضاء[(٣)] قالت: فإنى أشهدك وأشهد نبى الله ﷺ أنك إذا أسلمت فقد رضيت بالإسلام منك ».

قال أنس: فانصرف عنها وقد وقع في قلبه من ذلك؟ فأتاها يومًا فقال: الذى عرضت علىَّ قد قبلت، فمنْ لى بهذا؟ قالت: يا أنس قم فانطلق مع

---

(١) رواه البخارى (الفتح ١٠/ ٥٥٤).
(٢) دهرك: همتك وإرادتك.
(٣) الصفراء والبيضاء: الذهب والفضة.

عمك، فقام، فوضع يده على عاتقي؟ فانطلقنا حتى إذا كنا قريبًا من نبي الله ﷺ فسمع كلامنا فقال ﷺ: «هذا أبو طلحة بين عينيه غُرَة الإسلام» فسلم على نبي الله ﷺ فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فزوّجه رسول الله ﷺ على الإسلام. قيل: ما سمعنا بمهر قط كان أكرم من مهر أم سليم في الإسلام(١).

إن أول ما يلفت الانتباه في موقف أم سليم رضي الله عنها عندما تقدم أبو طلحة للزواج منها، هو أنها لم تعرض عليه الإسلام إلاَّ بعد أن بينت له بالدليل العقلي فساد عقيدته «أما تعلم أن آلهتكم التي تعبدون ينحتها عبد آل فلان»، ثم أثارت تفكيره، ووجَّهته إلى التدبر ومراجعة نفسه، وإعمال فكره بقولها: «أما تستحي أن تسجد لخشبة»، فهذا يدل على ما تملكه هذه المرأة الصالحة من قوة الحجة، وفصاحة اللسان والجدل.

لم يلهها طلب الزواج منها، وأنها ستكون صاحبة بيت مرة أخرى وستنعم بما ترغب فيه كل أنثى أن تنعم من بيت وزوج وحياة مستقرة عن دعوته إلى عبادة الله تعالى وحده ودخوله في الإسلام.

كذلك يبدو لنا بجلاء عكس ما تفكر فيه أكثر الفتيات اليوم، فرغبتها رضي الله عنها في إسلام أبي طلحة كان مقدمًا على الدرهم والدينار، على الذهب والفضة، فهي حريصة على زيادة عدد المسلمين، ولم يلهها ذلك كله عن استمرارها في دعوته، وقالت: إني لا أريد منك صداقًا غيره(٢).

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (٢/ ٣٠٦)- حياة الصحابة (٢/ ٥٨٩، ٥٩٠)- صفة الصفوة (٢/ ٣٦).

(٢) ولذلك يبدو لنا خطأ تفكير بعض الأخوات المسلمات الديِّنات من قبولهن بأزواج ليسوا في الحقيقة ملتزمين ومستقيمين على الدين، خوفاً من أن يفوتها قطار الزواج، أو لرغبتها في التمتع بالدنيا ولو على حساب الدين!

هكذا استعلت أم سليم رضي الله عنها بدينها عن الدنيا بمالها وذهبها وشهواتها، ويوم تستعلي المرأة بدينها عما عداه، وتعتز بدينها قولاً وعملاً، سنرى أجيالاً صالحة من النساء، تهتم بعبادتها لله تعالى، وبدعوة غيرها إلى الاستقامة على الدين، تهتم بتربية نفسها وأولادها على منهج لا إله إلا الله، ولن تلتفت إلى أقوال الناس يوافقون أو يعترضون، يثنون عليها أو ينكرون؛ لأن الدين عندها أعز من كل شيء.

ويوم تفتقد المرأة إلى هذه المعاني العظيمة سنرى حثالات من النساء في كل مكان دينهن الدنيا، وقبلتهن الشهوات، وحياتهن الهوى والمتاع، وهذا هو حال أكثر نساء اليوم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وعن أنس رضي الله عنه قال: جاءت أم سليم رضي الله عنها إلى أبي أنس، فقالت: جئتُ اليوم بما تكره، فقال: لا تزالين تجيئين بما أكره من عند هذا الأعرابي، قالت: كان أعرابيًا اصطفاه الله واختاره وجعله نبيًا، قال: ما الذي جئت به؟ قالت: حُرمت الخمر. قال: هذا فراق بيني وبينك.

وفي هذا الموقف يبرز لنا عدم يأس أم سليم رضي الله عنها من الأمل في هداية زوجها إلى الإسلام، وفي إدخال نور الحق إلى قلبه، لكن الرجل يزداد صلابة وعنادًا، ويصر على كفره وضلاله، وصدق الله تعالى حيث قال: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [القصص: ٥٦].

ثالثًا: دور الزوجة في تسلية زوجها عند المصائب:

لقد ضربت أم سليم رضي الله عنها مثلاً في دور الزوجة في تسلية زوجها عند المصائب، يفوق كل التصورات وكل التوقعات.

والحمد أن الذي ضربت هذا المثال الرائع إحدى الصحابيات وليست

واحدة من أمهات المؤمنين ﵅، حتى لا تقول واحدة : إنها أم المؤمنين، وأنى لنا أن نصل إليهن إيماناً أو عملاً؟!!

ولكن كانت امرأة عادية من نساء الصحابيات، ولكنها بإيمانها وثباتها واعتزازها بإسلامها وفهمها له ، فاقت أترابها من النساء، وأصبحت قدوة تنشغل بها نساء المسلمين الصالحات.

والشاهد من الحديث على ذلك: أن أبا طلحة ﵁ عندما عاد من سفره وسأل عن ابنه وقد تركه مريضاً قالت له ـ وقد مات الصبي ـ: «قد هدأت نفسه وأرجو أن يكون قد استراح».

وظن أبو طلحة أن ابنه قد هدأت نفسه ونام، ومضت أم سليم تبدى حسن تبعلها، فتزينت له، وقربت إليه العشاء فتعشى، حتى كان منه ما يكون من الرجل مع زوجته، فلما أصبح أبو طلحة اغتسل وحين همَّ بالخروج قالت له أم سليم وهى شامخة تكمل دورها في تسلية زوجها، وتضرب لنا المثال العجيب في كيفية إيصال خبر وفاة ابنها لأبى طلحة: «يا أبا طلحة أرأيت لو أن قوماً أعاروا أهل بيت عارية، فطلبوا عاريتهم، ألهم أن يمنعوهم، قال: لا ليس لهم ذلك ، إن العارية مؤداة إلى أهلها، قالت: فاحتسب ابنك، إن الله أعارنا فلاناً ثم أخذه منا» ، فاسترجع.

فلنا أن نتعجب كيف تمالكت هذه المرأة نفسها ـ وهى الضعيفة ـ وآلت على نفسها، وقد عاد زوجها من سفره، يريد أن يستريح ويأكل وينعم بأهل بيته بعد غياب، وفي نفس الوقت قد مات ولدها وقد غطته في ناحية من البيت.

كانت ﵂ بين صراعين، لكنها قدمت حق زوجها فأطعمته وهدَّأت من نفسه بعد غيابه عن البيت، وطمأنته على ولده، ثم نال منها ما ينال الرجل من

أهله حتى تهدأ نفسه، وتسكن جوارحه، ثم أبلغته بالخبر.

ولم يكن إبلاغه بالخبر بلاغًا عاديًا، وإنما بصورة تفوق التصور أيضًا، وتجعل المرء يقف أمام هذه المرأة بإجلال وتقدير واحترام لا يوصف.

لقد ضربت له مثالاً رائعاً في قوم قد أعيروا عارية فلما طُلبت منهم منعوها، وهل يقبل أحدٌ ذلك، بالطبع لا، لذلك فقد عاب على هؤلاء ما فعلوه.

كان استدراجا إيمانيًا، تؤصل عنده القاعدة، ثم بعد ذلك تذكر له فرعًا منها، فما كان من الرجل إلا أن استرجع وقال: إنا لله وإنا إليه راجعون .

فما كان من الرجل أيضًا إلا أن يقف هذا الموقف الإيمانى المفروض في هذا الحدث، وإلاَّ أين هو من موقف زوجته؟!!

رابعًا : دور الأم فى تربية الأولاد :

لا نستطيع أبداً أن نغفل الدور الكبير والمهم للأم في تربية أولادها، ومع أنها شريكة الرجل في هذه المسئولية الكبيرة، إلا أن نصيبها أوفر وأهم من الرجل، وذلك لأن الأم هى التى حملت ثم وضعت ثم أرضعت، فضلاً عن وجودها مع أولادها وقتاً أكبر من الرجل.

ويظهر لنا هذا الدور في موقف أم سليم ﵂ مع ولدها أنس، فلما جاء والد أنس وكان غائبًا، فقال: أَصَبَوْتِ؟ قالت: ما صبوت ولكنى آمنت بهذا الرجل، وجعلت تلقن أنسًا وتشير إليه قل: لا إله إلاَّ الله، قل: أشهد أن محمداً رسول الله، وكان الولد يردد ما تقوله له أمه، وكان والد أنس يقول لها: لا تفسدى علىَّ ابنى، فتقول: إنى لا أ فسده.

هكذا عكفت أم سليم ﵂ على ابنها أنس، تلقنه الشهادة، وتحوطه

بالرعاية والعناية حتى لا يقع فريسة تحت يدى أبيه الكافر.

وقد أصرَّت أم سليم رضي الله عنها بعدما مات والد أنس ألا تتزوج وأن تربى ولدها حتى يكبر، مخافة أن يصيبه ضرر بسبب زواجها الجديد أو على الأقل تنشغل عن تربيته التربية التى تريدها له، وكانت تقول رضي الله عنها: «ولا أتزوج حتى يأمرنى أنس فيقول: قد قضت الذى عليها».

وقد اعترف أنس فعلاً بعد ذلك لها بأنها لم تنشغل عنه في حضانته وطفولته فقال: «جزى الله أمى عنى خيراً، لقد أحسنت ولايتى»، فكانت أم سليم أكثر حرصًا على تربية ولدها ونشأته من الإسراع إلى الزواج بعد وفاة زوجها، وإن كان هذا اجتهاداً منها رضي الله عنها في أمر مباح، وإلاَّ فلا ضير في زواج المرأة بعد موت زوجها حتى وإن كان عندها أولاد، بل وربما كان ذلك واجبًا عليها في بعض الحالات، لاسيما إن لم يكن هناك عائل يعولها هى وأولادها، أو تخشى على نفسها الفتنة، لاسيما في زمن استعرت فيه نار الفتن.

يقول عدنان حسن صالح باحارث :

« للأم وظيفة هامة في التربية بالنسبة للطفل الصغير خاصة، إذ إن بناءها الجسمى والنفسى مهيأ لتحمل أعباء التربية والحضانة والاعتناء بالطفل، فلا يستطيع الرجل أن يسد مكان الأم ودورها في التربية، وأقرب مثل لهذا الموضوع، ما يشاهد في عالم الحيوان، إذ ينتهى دور الذكر بالتلقيح في معظم الحيوانات، أما الأم فلا ينتهى عملها ووظيفتها التربوية حتى يكتمل البناء الجسمى للصغير، ويصبح معتمداً على نفسه في جميع شؤونه.

أما في الإنسان فالقضية أعمق؛ إذ ليس دور الأم فقط تأمين الغذاء للولد، ورعاية بدنه وملابسه فحسب؛ بل إن دورها الأكبر والأعظم هو ذلك الحب

المتدفق من قلبها على الولد، وذلك الحنان الذى يشعر الولد فيه بالأمن والسعادة، فينمو بدنه وعقله ونفسه نمواً متكاملاً ، أما «الطفل الذى يُحرم من أن يُحَبَّ ويُحِبَّ في باكورة حياته نتيجة لعزله بعيداً عن أمه يتأخر نموه البدنى والعقلى واللغوى والاجتماعى، وتُصاب شخصيته بضرر بالغ »[(١)] ، بحيث لو زاد انعزاله عن أمه أكثر من ثلاثة أشهر إلى أن يصل خمسة أشهر، فإن نموه العاطفي يختل عن أقرانه من الأطفال[(٢)] ، وتُعد فترة الطفولة المبكرة خاصة في الفترة من تسعة أشهر إلى ثمانية عشر شهراً أقصى مراحل الخطر الذى يمكن أن يحدث للطفل من جراء عزله عن أمه[(٣)] . لهذا يحذر الأب من أن يتخذ قرار الانفصال في فترة كهذه، بل عليه أن يصبر ويحتسب ، ويوقع طلاقه على زوجته في الوقت المناسب المشروع بعد الأخذ بأسباب الإصلاح.

ونظراً لأهمية دور الأم بالنسبة للطفل الصغير، فإن من محاسن الشريعة الإسلامية أن قدَّمت النساء على الرجال في رعاية الأطفال؛ لأنهن أخبر بأمور الحضانة والتربية منهم[(٤)] ، وفي هذا يقول عليه الصلاة والسلام: « **المرأة أحق بولدها ما لم تزوج** »[(٥)] ، ويصف الماوردى رحمه الله الأم مع أولادها فيقول: «والأمهات أكثر إشفاقًا، وأوفر حبًا، لما باشرن من الولادة، وعانين من التربية، فإنهن أرق قلوبًا، وألين نفوسًا»[(٦)] ، لهذا فإن وجودها في الأسرة، وقيامها بواجباتها في التربية والرعاية يُعد من أهم دعائم الأسرة المسلمة، ومن أعظم

(١) السيد فؤاد البهى، الأسس النفسية للنمو من الطفولة إلي الشيخوخة، ص ٢٢٧.
(٢) المرجع السابق.
(٣) مجلة التربية، «أهمية التخطيط لرعاية الطفولة»، العدد (٧٣)، ص ١٣٠.
(٤) ابن القيم، زاد المعاد فى هدى خير العباد ، جـ ٥ ، ص ٤٣٨.
(٥) الدارقطنى، سنن الدارقطنى، كتاب النكاح، باب المهر، حديث رقم (٢١٩) ، جـ ٣ ص ٣٠٥
(٦) الماوردى ، أدب الدنيا والدين ص ١٥٢.

أسباب استقرارها النفسي والاجتماعي »[(١)].

خامساً : أهمية تزيُّنْ المرأة لزوجها :

تضرب أم سليم رضي الله عنها لنساء المسلمين من بعدها مثالاً غاية في الروعة والقمة في فهمها لحقوق الزوج، وعلو قدره عندها.

فلما جاء أبو طلحة إلى البيت وأرادت أن تخبره الخبر، كانت قد استقبلته وهي متزينة ومتطيبة ، ثم تصنَّعت له أحسن ما كانت تصنع قبل ذلك، وتعرضت له، فكان منه ما يكون من الرجل مع زوجته.

وفي مسند الإمام أحمد: «فأكل وطابت نفسه، قال: فقام إلى فراشه فوضع رأسه، قالت: وقمت أنا فمسست شيئًا من طيب، ثم جئت حتى دخلت معه الفراش، فما هو إلاَّ أن وجد ريح الطيب، فكان منه ما يكون من الرجل مع أهله»[(٢)].

هذا الحديث الذى يبرز لنا الموقف العجيب لأم سليم تجاه زوجها، يكشف عن جانب عظيم ارتقت إليه هذه المرأة الثكلى، حيث فقدت وليدها الصغير، ومع ذلك كان استعدادها لزوجها العائد إلى بيته أكبر عندها بكثير من أن تشغله ابتداءً بوفاة ابنها، في الوقت الذى تتكاسل فيه كثير من نساء اليوم، بل ولا يهتممن بأمر الزينة والطيب.

(إن الزوجة التى تجدد في مظهرها، ليراها زوجها متعطرة، متزينة من أجله، بما يجذب إليها الزوج ويغض به بصره عن التطلع إلى الحرام أقدر على إيجاد جو المحبة والسعادة في بيتها، ولأن سرور الرجل راجع إلى مظهر الزوجة واعتنائها

---

(١) مسئولية الأب المسلم فى تربية الولد فى مرحلة الطفولة (ص ٥٤٣، ٥٤٤).

(٢) المسند (٣/ ١).

بنفسها.

ولذلك؛ فإنه على المرأة أن تواظب على النظافة والتزيُّن لزوجها[(١)]، فذلك أدعى لشهوة الرجل وأملأ لعينه وأظهر لمحاسن المرأة وأدوم للألفة والمودة.

لأن الزينة متعة للعين ومتعة للشم، والإنسان يسعد برؤية الشيء المتزين، وشم الروائح الطيبة.

وعليها أن تحرص ألا تظهر أمامه بما يسبب اشتمئزازه ونفوره منها بملابس رثة أو روائح كريهة.

وقد حث نبي الإسلام ﷺ النساء على الزينة، فقد رأى امرأة أهملت زينة يديها فقال لها: « ما أدرى أيد رجل أم يد امرأة » . قالت: بل امرأة قال: « لو كنت امرأة لغيرت أظفارك »[(٢)] - يعنى بالحناء - ، أى زينيها بالحنة أو بما يزين به النساء أيديهن.

ولو علمت النساء مدى الفزع والجزع وانغلاق النفس والقلب من الروائح الكريهة والعفنة، لعذرن الأزواج في هذه الحالة إذا تجنبوا الاقتراب منهن للحديث العادى فضلاً عن محاولة القبلة أو المداعبة أو اللقاء.

ولذلك قال أحدهم: « لا شيء يهدد العلاقة الجنسية بالفشل الكامل قدر بخر الفم، وعفن اللثة والأسنان عند الزوج والزوجة معاً » .

ولذلك لم ير الإسلام مانعًا من تزين المرأة لزوجها، بل هو يحب أن يدخل على زوجته فيجدها حسناء فاتنة، تسره إذا نظر إليها، وتحفظه إن غاب عنها،

---

(١) وليس من الزينة إطالة الأظافر أو ترقيق الحواجب أو وصل الشعر بلبس الباروكة ونحوها

(٢) حسن . رواه أبو داود(٤١٦٦) ، وغيره عن عائشة ﵂ ، وانظر: صحيح سنن أبى داود (٣٥١٠) .

وتفتنه بجمالها ودلالها.

فعلى المرأة أن تبذل في ذلك أقصى ما تملك من جهد للفوز بقلب زوجها وللمحافظة على دفء العلاقة بينهما بما تبديه من رقة ودلال وجمال لقصر رغبات زوجها عليها .. فعليها أن تحسن اختيار اللباس المناسب لسنها ولونها وأن تراعى الألوان التى يحبها الزوج لا التى تحبها صديقاتها من النساء، وترتدى الملابس الجميلة لزوجها، القصير منها والطويل، الشفاف منها والسميك.

ومن الزينة أيضًا تصفيف شعرها وتجميله، وإزالة الشعر الزائد والاعتناء بنظافة جسدها، ورشاقته متجنبة السمنة والبدانة؛ لأن رشاقة البدن جمال)[١] .

سادسًا: الصبر في حياة المسلمة:

قال علي بن أبي طالب : « ألا إن الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس بار الجسد » ، ثم رفع صوته فقال: « ألا إنه لا إيمان لمن لا صبر له » .

إن الصبر في حياة المرأة بالغ الخطورة، وذلك لأنها ضعيفة جزعة، تنهار بسرعة وتخور قواها، وهى أقرب للتسخط منها إلى الرضا والاحتساب، لذا فإنه يجب على المرأة أن تعد العدة وتشمر عن ساعديها، فتترقب كل فجيعة أو مصيبة بحسن الاستقبال والاسترجاع والرضا.

ولتعلم المسلمة أنه لولا مصائب الدنيا ومحنها، لأصابها من أدواء الكبر والعجب وقسوة القلب ما كان سببًا عاجلاً لهلاكها، فمن رحمة الله تعالى أن يتفقدها بين الحين والآخر بأنواع المصائب، فيقوى قلبها، وتتهذب نفسها،

---

(١) متعة الحياة الزوجية ـ إسماعيل عبد القادر (ص ٦٣ : ٦٦).

وتصح عبوديتها لله تعالى، فسبحان من يرحم ببلائه، ويبتلى بنعمائه، كما قيل:

قد يُنعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلى الله بعض القوم بالنعم

ولتعلم المسلمة ـ أيضًا أن الله تعالى بمنه وكرمه، يعفو عن كثير، وإلاَّ لقابلنا الله تعالى يوم القيامة بما لا نطيق من الذنوب.

ولتعلم أيضًا أن الذى أنزل الداء أنزل الدواء ووعد الشفاء، فالصبر وإن كان شاقًا في بعض الأحيان، إلا أنه تحصيله ممكن، وهذه هى لذة العبادة ومعرفة قدرها.

قال يحيى بن معاذ: ابن آدم، مالك تأسف على مفقود لا يرده عليك الفوت، ومالك تفرح بموجود لا يتركه في يديك الموت.

اصبر لكل مصيبة وتجلد ... واعلم بأن المرء غير مخلد

أو ما ترى أن المصائب جمة ... وترى المنية للعباد بمرصد

من لم يصب ممن ترى بمصيبة ... هذا سبيل لست عنه بأوحد

وإذا ذكرت مصيبة تسلو بها ... فاذكر مصابك بالنبى محمد

صبر امرأة تفضل ملايين الرجال:

هذه زوجة فتح المَوْصلى انقطع أصبعها فضحكت فقال لها بعض من معها: أتضحكين وقد انقطع أصبعك؟ فقالت: أخاطبك على قدر عقلك، حلاوة أجرها أنستنى مرارة قطعها.

قال ابن القيم رحمه الله: إشارة إلى أن عقله لا يحتمل ما فوق هذا المقام من ملاحظة المبتلى، ومشاهدة حسن اختياره لها في ذلك البلاء وتلذذها

بالشكر له والرضى عنه، ومقابلة ما جاء من قِبَله بالحمد والشكر كما قيل:

لئــــن ساءني أن نِلْتني بمـــساءة فقد سَرَّني أني خطرت ببالكا[(١)]

(١) مدارج السالكين (٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨)

وصية أمامة بنت الحارث لابنتها

وصية أمامة بنت الحارث لابنتها عند زواجها

خطب الحارث بن عمرو ملك كندة ابنتها أم إياس بنت عوف بن محلم الشيباني، فزوجها أبوها منه، فقالت أمامة لابنتها:

«إن الوصية لو تركت لفضل أدب لتركت ذلك منك، ولكنها تذكرة للغافل ومعونة للعاقل، ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لغني أبويها وشدة حاجتهما إليها كنت أغني الناس عنه، ولكن النساء للرجال خلقن ولهن خلق الرجال.

أى بنية إنك فارقت الجو الذى منه خرجت، وخلفت العش الذى فيه درجت، إلى وكر لم تعرفيه، وقرين لم تألفيه ، فأصبح بملكه عليك رقيبًا ومليكًا، فكونى له أَمةَ يكن لك عبداً وشيكاً.

يا بنية احملى عنى عشر خصال تكن لك ذخراً وذكراً: الصحبة بالقناعة، والمعاشرة بحسن السمع والطاعة، والتعهد لموقع عينيه، والتفقد لموضع أنفه، فلا تقع عينه، منك على قبيح، ولا يشم منك إلا أطيب ريح، والكحل أحسن الحسن، والماء أطيب الطيب المفقود.

والتعهد لوقت طعامه، والهدوء عنه عند منامه، فإن حرارة الجوع ملهبة وتنغيص النوم مبغضة، والاحتفاظ ببيته وماله، والإرعاء على نفسه وحشمه وعياله، فإن الاحتفاظ بالمال حسن التقدير، والإرعاء على العيال والحشم حصن التدبير، ولا تفشى له سراً ولا تعصى له أمراً ، فإنك إن أفشيت سره لم تأمنى

غدره، وإن عصيتي أمره أوغرت صدره، ثم اتقى مع ذلك الفرح إن كان نزحًا والاكتئاب إن كان فرحاً، فإن الخصلة الأولي من التقصير والثانية من التكدير، وكوني أشد ما تكونين له إعظامًا يكن أشد ما يكون لك إكرامًا، وأشد ما تكونين له موافقة يكن أطول ما تكونين له موافقة، واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاكِ، وهواه على هواكِ فيما أحببتِ وكرهتِ، والله يُخيِّر لك».

الدروس والعبر

أولاً : وصايا الأبوين لبناتهم :

إن الوالدين لما لهما من خبرة فى الحياة، ولما أناطهما الله تعالى من المسئولية تجاه أولادهم، فهم ولاشك أقدر الناس على إسداء النصح لأولادهم، لاسيما إذا كان الوالدين مستقيمين على دين الله تعالى، حريصين على تقواه عز وجل.

وقد كان السلف رضوان الله عليهم لهم السبق فى ذلك ، لاسيما يوم زفاف بناتهم، حيث إنها سترحل إلى بيت جديد، ورجل لم تألفه من قبل، مع قلة خبرة فى الدنيا، وفى مسائل الزواج بصفة خاصة.

* قال أنس: كان أصحاب رسول الله إذا زفوا امرأة على زوجها، يأمرونها بخدمة الزوج ورعاية حقه.

* وأوصى عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ابنته فقال:

«إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق .

وإياك وكثرة العتب، فإنه يورث البغضاء .

وعليك بالكحل، فإنه أزين الزينة، وأطيب الطيب الماء » .

* وأوصي ابن الأحوصِ ابنته زوج أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله تعالى عنه فقال لها: « أى بنيتى! إنك تقدمين على نساء من نساء قريش، هنَّ أقدر على الطيب منك، فاحفظى عنى خصلتين، تكحلى وتطيبى بالماء حتى

يكون ريحك ريح شن[1] أصابه مطر».

* وقال أبو الأسود لابنته: «إياك والغيرة، فإنها مفتاح الطلاق، وعليك بالزينة، وأزين الزينة الكحل، وعليك بالطيب، وأطيب الطيب إسباغ الوضوء».

* ونصحت أم معاصرة ابنتها قبل الزفاف بنصيحة مزجتها بابتسامتها ودموعها: «يا بنيتي! أنت مقبلة على حياة جديدة ... حياة لا مكان فيها لأمك أو أبيك أو لأحد من أخوتك فيها... ستصبحين صاحبة لرجل لا يريد أن يشاركه فيك أحد حتى لو كان من لحمك ودمك...

كوني له زوجة يا ابنتي وكوني له أمًا، اجعليه يشعر أنك كل شيء في حياته وكل شيء في دنياه... اذكري دائماً أن الرجل أي رجل ـ طفل كبير ـ، أقل كلمة حلوة تسعده، لا تجعليه يشعر أنه بزواجه منك قد حرمك من أهلك وأسرتك، إن هذا الشعور نفسه قد ينتابه هو، فهو أيضاً قد ترك بيت والديه وترك أسرته من أجلك، ولكن الفرق بينك وبينه، هو الفرق بين المرأة والرجل... المرأة تحن دائمًا إلى أسرتها، إلى بيتها الذي ولدت فيه ونشأت وكبرت وتعلمت... ولكن لابد لها أن تعوّد نفسها على هذه الحياة الجديدة، لابد لها أن تكيف حياتها مع الرجل الذي أصبح لها زوجاً وراعياً وأباً لأطفالها.... هذه هي دنياك الجديدة.

يا ابنتي، هذا هو حاضرك، ومستقبلك، هذه هي أسرتك التي شاركتما ـ أنت وزوجك ـ في صنعها، أما أبواك منهما ماض... إنني لا أطلب منك أن تنسى أباك وأمك وإخوتك، لأنهم لن ينسوك أبداً يا حبيبتي، وكيف تنسى الأم فلذة كبدها، ولكني أطلب منك أن تحبي زوجك وتعيشي له وتسعدي بحياتك معه».

---

(١) الشن: القِربْة.

ثانيًا: نظرة عامة إلى حقوق الزوج في الإسلام:

لقد مر بنا الحديث عن عظم مكانة الزوج فى الإسلام، وكيف أن الإسلام رفع قدر الزوج، فهو القيم والراعى والمسئول الأول عن الأسرة، لذا فإن المرأة المسلمة فى معاملتها لزوجها، وفى قيامها بحقوقه، لابد أن تنطلق من عدة دعائم أساسية ، حتى تسير سفينة الحياة الزوجية هادئة مطمئنة فى بحر من السعادة والهناء، ولعل أهم هذه الدعائم هى:

١ ـ تعظيم قدر الزوج، وذلك انطلاقًا من تعظيم الشرع لقدره، وليس انطلاقا من عادات أو تقاليد أو آراء من هنا أو هناك فحسب، حيث إنه عندما يكون الدافع عند المسلمة هو التزام الشرع والتماس رضي الله عز وجل، فإن العمل دائمًا يتم فى أحسن صورة، فتقوم الزوجة بحقوق الزوجية على أكمل وجه، بل ربما تضحى وتنسي نفسها لتقدم رضي زوجها على رضاها، وحينئذٍ ينتبه الزوج إلى زوجة كريمة عاقلة ديِّنة فعلاً ترجو الله والدار الآخرة، فيحسن هو الآخر من جانبه إليها، بل وربما يتنافس الزوجان فى إرضاء كل واحد منهما الآخر فى إطار من طاعة الله تعالى.

٢ ـ العقل يفرض على الإنسان أنه إذا أحسن إلى الناس أحسنوا إليه، وإذا أساء إليهم أساءوا إليه ـ في غالب أحوال الناس ـ فما بالنا لو كان ذلك بين الزوجين، وانطلاقًا من دوافع شرعية كطلب مرضاة الله عز وجل، وابتغاء الأجر والثواب.

إن الزوجة المسلمة عندما تحسن إلى زوجها، بل وتتحمل إساءته ابتغاء مرضاة الله عز وجل، فهى بذلك تسير على الطريق الموصل إلى جنة ربها عز

وجل ـ وهل بعد ذلك النعيم من نعيم؟!

٣ ـ قصر الأمل فى الدنيا يحمل كلاً من الزوجين أن يحسن إلى الآخر، وأن يتقرب إلى اللهعز وجل بأداء الحقوق والواجبات خشية فراق الدنيا والزوج غاضب على زوجته أو غير راضٍ عنها.

بل إن قصر الأمل فى الدنيا يحمل الإنسان على الزهد فيها، وطلب ما عند الله عز وجل من النعيم والحياة الأبدية فى الجنة، وكل ذلك إذا عايشته الزوجة وملأ كيانها وجوارحها، لهنأ بها زوجها، وسعد بهما أولادهما .

٤ ـ الزوج هو الطريق الموصل إلى الجنة أو إلى النار، فإن أطاعته فى طاعة اللهعز وجل كان سببًا لدخولها الجنة، وإن عصته فى طاعة الله عز وجل، كان ذلك سببًا لدخولها النار، فأى حقوق أعظم من حقوق الزوج التى تؤدى بالمرأة إما إلى الجنة وإما إلى النار.

٥ ـ العبادة لا تصرف إلا لله عز وجل ، والسجود من العبادات التى لا تكون إلا للهعز وجل، ومع ذلك لو كان النبى ﷺ أمر أحداً بالسجود لأحد، لأمر الزوجة أن تسجد لزوجها!.

ألم تسأل المرأة نفسها لم كل ذلك؟!.

ألم تسأل المرأة نفسها على أى شيء يدل ذلك؟!.

إنها المكانة العظمي التى رفع الإسلام بها الزوج إلى هذا القدر .

٦ ـ كيف أن حقوق الله تعالى على المرأة لا تؤدى حتى تؤدي المرأة حق زوجها، ما معني ذلك؟ وعلى أى شيء يدل؟.

إن المرأة إذا أقبلت على ربها بالطاعة، وعلى كتابه بالتلاوة، وعلى اللهج بذكره إلى غير ذلك من الطاعات، وهى فى الوقت نفسه عاصية لزوجها قد غضب عليها؛ لأنها تعصيه فى الله‌تعالى، فإنها لم تفعل شيئاً بعد، وإن عباداتها السابقة كلها موقوفة حتى تؤدي حق زوجها.

هل فهمتِ أيتها الزوجة المسلمة الآن: ما معني حقوق الزوج؟ وكيف تؤدى؟ وقفة مع النفس صادقة تجعل السعادة ترفرف فى أرجاء البيت المسلم.

ثالثًا: كيف تسعدين زوجك؟:

هى غاية يجب أن تبحث عنها كل امرأة مسلمة تخاف الله تعالى، وتطلب مرضاته، وترجو رحمته.

وهى غاية كل مسلمة تقية، تريد لنفسها ولبيتها السعادة والاستقرار والطمأنينة.

وهى غاية كل مسلمة مستقيمة على دين الله تعالى، تعرف للزوج حقه وقدره الذى عظمه الإسلام، لذا فهى دائمة البحث عن كل ما يرضيه فى غير معصية.

وإسعاد المرأة زوجها يتم بوسائل كثيرة نذكر هنا أهمها :

١ـ الطاعة في المعروف :

فالزوج يبغض المرأة التى لا تطيعه ـ فى غير معصية ـ أو لا تأبه بأوامره وتعرض عنه، فالطاعة بالمعروف واجب شرعى على الزوجة، جعل الله ثوابه الجنة كما قال ﷺ: «إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها،

دخلت من أى أبواب الجنة شاءت» (١).

(إنَّ طاعتك لزوجك تحقق لك ثواب الله وجزاءه، وتوجد بينكما المحبة، وترسخ الودَّ، وتهيئ لك الجو لتتحقق مطالبك التى تتوقف على رضي الزوج، وتساعدك على أن يطيعك أولادك، ذلك لأن المرأة الشريرة التى تعصى زوجها فى كل ما يأمرها به، ويري ذلك أولادها منها، ينشؤون على معصية الأوامر، فلا يستجيبون لأمر فى البيت، أمًا كان أو أبًا.

إن المرأة المسلمة عندما تطيع زوجها تكون فى طاعة ، وهى بذلك مأجورة، ولا سيما عندما تكون الطاعة فيما لا توافق عليه. بل إن الطاعة لتتجلي فى طاعته فيما تكره أكثر مما تتجلي فى طاعته فيما تحب. إنّ طاعته فى قبول الجواهر النفيسة ليست كطاعته فى تنفيذ أمر لا تريده، وكمالُ الطاعة يتحقق فى أن تؤدي الأمر بكل سرور ورضى، أما إذا أدته متبرمة متأففة، يعلو وجهها العبوس وأمارات الكراهية والضيق، فإنّ هذه الطاعة كعدمها.

إنّ إظهارها الرضي والسرور، وإشعار نفسها وزوجها بالقناعة، مما يخفف عليها تنفيذ ما تكره، فاحذرى أيتها العروس الفاضلة من أن تكونى من أولئك النساء المولعات بمخالفات أزواجهن، فلا تؤمر الواحدة منهن بشيء إلا سارعت إلى مخالفته حتى ولو كان فى مصلحتها، فهؤلاء يقعن فى سخط الله، ويعرضن حياتهن للدمار، وتدعو عليهن الحور العين. عن معاذ ـ رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال:

« لا تؤذى امرأةٌ زوجها إلاّ قالت زوجته من الحور العين: لا تؤذيه قاتلك الله فإنما هو عندك دخيل يوشك أن يفارقك إلينا » (٢).

---

(١) رواه ابن حبان وهو صحيح (صحيح الجامع ٦٧٣).

(٢) رواه ابن ماجة، والترمذى، وانظر: «الترغيب والترهيب» ٣/ ١٣، و«صحيح الجامع الصغير» ٧٠٦٩.

إن الإصرار على مخالفته يوغر صدره، ويجرح كرامته، ويسيء إلى قوامته، فيبادلك ذلك ممانعة لما تحبين ومخالفةً لما ترغبين.

وعن ابن أبي أوفي قال: لما قدم معاذ بن جبل من الشام قال: يا رسول الله قدمت الشام فوجدتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك. قال: « **فلا تفعل فإني إن أمرت شيئًا أن يسجد لشيء لأمرتُ المرأة أن تسجد لزوجها، والذى نفسي بيده لا تؤدى المرأة حق ربها حتى تؤدى حق زوجها** »(١).

وقد فصلت القول بعض التفصيل فى الطاعة؛ لأن أفكاراً وافدة دخيلة علينا تسود فى أوساط معينة من نحو قولهن: «إن فى الطاعة غضاضة على المرأة وانتقاصًا لها»، ومن نحو قولهن للعرائس: « لا تعوّديه على إصدار الأوامر، وذلك بألا تطيعى أمره » إن ذلك كله هراء، وباطل، فاربأى بنفسك يا أيتها الأخت الكريمة عن هذا المستوي المنحدر، واعلمى أن حق الله أحق أن يؤدى، وأن طاعة الزوجة لزوجها فيما لا معصية فيه سبب فى استقرار الحياة الزوجية وسيادة التفاهم البناء .

وهذه كلمة إلي الفتيات المتدينات :

أيتها الأخت الكريمة ارفقى بزوجك المتدين، فلا تجمعى عليه النكد والشقاء فى البيت مع ما يلقي من أعداء فى خارج البيت، واعلمى أن طاعتك لزوجك تعدل الجهاد فى سبيل الله ، فهناك حديث غير قوى ولكن معناه صحيح فيه أن امرأة جاءت إلى النبى ﷺ فقالت: يا رسول الله أنا وافدة النساء

---

(١) رواه ابن ماجة، وابن حبان فى صحيحه، واللفظ له، والحاكم، والترمذى (الترغيب والترهيب ٣/ ١٢).

إليك. هذا الجهاد كتبه الله على الرجال، فإن يصيبوا أجروا، وإن قتلوا كانوا أحياءً عند ربهم يرزقون، ونحن معاشر النساء نقوم عليهم، فما لنا من ذلك؟ فقال رسول الله:

«أبلغي من لقيت من النساء أن طاعة الزوج واعترافًا بحقه يعدل ذلك وقليل منكن من يفعله» (١).

إن هذه الصفات المهمّة لها دورها الفعال في تحقيق المودة بين الزوجين وإقامة دعائم السعادة والسكن) (٢).

٢ ـ تقوي الله تعالي :

فالتزامك بشرع الله وطلب مرضاة الله تعالى، يخلف عليك خيراً كثيراً من الله تعالى في نفسك وفي بيتك وفي أولادك ومع زوجك، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

فأعينيه على طاعة الله تعالى؛ وذكريه بالحسنى إن غفل أو نسي، وكوني معه حيث يرضى الله تعالى.

٣ ـ الاهتمام بالبيت :

فالزوج يحب أن يري بيته نظيفًا مرتبًا، رائحته طيبة، وهو عند عودته من عناء العمل ومشقته، يريد أن يعود إلى روضة غناء يستريح فيها قلبه وعقله، وتطمئن فيها نفسه، فاحذري أيتها الزوجة كل ما يثيره أو يضايقه.

أما الزوجة المهملة التي لا تراعي ذلك ـ لا سيما إن كان هذا الأمر له بالغ الخطورة عند الزوج ـ فهي بذلك تخسر ثقة زوجها فيها، في القدرة على إدارة

(١) الترغيب والترهيب (٣/ ٠...).
(٢) نظرات في الأسرة المسلمة ـ دكتور محمد لطفي الصباغ ـ (ص ٩٦، ٩٧).

البيت وإعداده، بما يسعد النفس ويريحها، وذلك من أولي خطوات الشقاق داخل البيت.

٤ ـ الاهتمام بالزوج :

فالزوج يحب الزوجة التى تهتم به كثيراً، وتشغل نفسها كثيراً بما يحب من الطعام والشراب والملبس ، فاحرصى أيتها الزوجة على ما يرضيه فى مطعمه ومشربه، وعلى ما يبرز نظافته وأناقته فى ملبسه، وعليك أن تتفقديها فتصلحى ما يحتاج إلى إصلاح.

وأعدى له طعامه فى الوقت الذى يرغبه ، فلا يعود من عمله خارج البيت متعبًا جائعًا، والطعام لم يُعد بعد، أو لا يزال يُطهى، فإن ذلك يغضبه غضباً شديداً.

إن هذه الأمور سهلة ويسيرة، ولكن التهاون بها قد يجعل منها مشكلة، فانتبهى.

كذلك قابليه دائمًا ـ لاسيما عند عودته من العمل ـ بالابتسامة الحلوة، والكلمة الطيبة، والزينة الجميلة، والرائحة الزكية، فكل ذلك سبيل للسعادة الزوجية بينكما، ولا تبخلى عليه دائماً بالكلمة الطيبة، فإن لها سحر وأى سحر وشجعيه بإبراز محاسنه وتكرارها على لسانك، فليس أحلي على قلب الرجل من أن يسمع مثل هذا الكلام الدافئ من زوجته المُحبة الودودة.

٥ ـ طلب مرضاته :

فآثرى رضاه على رضاك، فهذا هو عربون المحبة والوفاء، والنجاة من الهم والنكد والشقاق.

إن الزوج عندما يري من زوجته الحرص على طلب مرضاته، فإن ذلك

يسعده، ويجعله يأخذ فى البحث عما يدخل على قلبها السرور والفرح جزاءً وفاقاً.

أطيعيه فيما لا معصية فيه لله، فإن ذلك أعلى مراتب طلب مرضاة الزوج؛ كيف وقد جعل الله ثواب ذلك الجنة لقوله ﷺ : « **إذا صلت المرأة خمسها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها، دخلت من أى أبواب الجنة شاءت**» [١] .

٦ ـ الاهتمام بالتزين أمامه :

فإن ذلك يعنى عظيم الاهتمام به، وهو من أهم عوامل ترسيخ المحبة والاستحواذ على قلب الرجل، وهو بمثابة إعادة بناء صرح الزوجية يومياً.

إن الزوجة المسلمة مدعوة إلى الاهتمام بأناقتها ورقتها حتى وإن مرَّ على زواجها عشرات السنين، فإن الرجل ـ وإن كبر سنه ـ لا يزال يأنس بالكلمة الحلوة، ويستمتع برؤية الجمال الذى يقيه على الأقل النظر إلى غيرها من النساء.

٧ ـ الوقوف بجانبه في السراء والضراء :

(قررى منذ الخطوة الأولي فى طريق الزواج الموفق السعيد أن تكونى عوناً له على الأحداث والأزمات ، وأن تمديه بالرأى وحسن التدبير . شاركيه مآسى الحياة وما أكثرها، فذلك كله مما يزيدك مكانة فى قلبه. إن الرجل يبقي محتاجاً إلي امرأة تشاركه آلامه، فذلك يدخل عليه من السكينة والأمن ورباطة الجأش والرضي والسرور ما يخفف عنه هذه الآلام، ويعينه على التغلب على الصعوبات.

إنك عندما تظهرين أمامه مادية، قاسية القلب، لا تهمُّك إلا مصالحك،

---

(١) رواه ابن حبان وهو صحيح (صحيح الجامع برقم ٦٧٣).

يتضاعف عليه المصاب ويعظم عليه الألم، وإنك بذلك تحفرين لسعادتك القبر الذى تدفن فيه.

والمرأة التى تفقد السعادة مع زوجها يصعب أن تجد سعادة مع أحد من الخلق.

إن الحياة فى حقيقتها عواطف ومواقف ، ومعانٍ أكثر مما هى أمور مادية)[(١)].

٨ ـ القناعة والتعفف :

(ينبغى أن تُشعرى زوجك أنه لا فرق بينك وبينه من الناحية المادية، وإياك أن تظهرى الطمع فى ماله، واحرصى على أن تتعففى إن أعطاك، فإذا قبلتِ هديته فاشكريه، إن ذلك مما يرفع قدرك فى نفسه، ولا تكثرى عليه بالمطالب التى تفوق إمكاناته ، فذلك يزعجه ويؤلمه؛ لأنه لا يستطيع أن يحقق هذه المطالب ويعز عليه أن يظهر أمام زوجته بمظهر العاجز الذى لا يملك تنفيذ ما تطلب، واعلمى أن ذلك إن تكرر منك يؤذك أعظم الإيذاء.

ليست الحياة الزوجية ميدان صراع ولا مجال نهب واكتساب... بل هى تعاون على إنشاء بيت سعيد آمن مطمئن.

حاولى ـ إذا خصَّك بشىء ـ أن تذكريه بأن يخصَّ نفسه أيضًا بما تعلمين حاجته إليه، ولا تكن الأنانية مستولية عليك إذا أحسست أنه يحرم نفسه من أجلك)[(٢)].

---

(١) نظرات فى الأسرة المسلمة (ص ٩٧، ٩٨) بتصرف يسير .
(٢) نظرات فى الأسرة المسلمة (ص ٩٧، ٩٨).

موقف صفية بنت عبد المطلب

عند وفاة أخيها

موقف صفية بنت عبد المطلب عند وفاة أخيها

في معركة أحد لما وضعت الحرب أوزارها، وقفت صفية علي أخيها حمزة، فوجدته قد بُقر [١] بطنه، وأخرجت كبده، وجُدع أنفه [٢]، وصُلِمَت أذناه [٣]، وشَوِّه وجهه، فاستغفرت له، وجعلت تقول:

«إن ذلك في الله ..

لقد رضيت بقضاء الله ..

والله لأصبرن ، ولأحتسبن إن شاء الله » .

---

(١) بُقِر بطنه: شقّ بطنه.
(٢) جِدع: قطع.
(٣) صلمت: قطعت.

﴿ الدروس والعبر ﴾

أولاً : من هي صفية بنت عبد المطلب؟[١] :

هى صفية بنت عبد المطلب بن هاشم القرشية الهاشمية، عمة رسول الله ﷺ، ووالدة الزبير بن العوام، أحد العشرة، وهى شقيقة حمزة.

أمها هالة بنت وهب خالة رسول الله ﷺ.

وكان أول من تزوجها الحارث بن حرب بن أمية ثم هلك، فخلف عليها العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى، فولدت له الزبير والسائب، وأسلمت وروت وعاشت إلى خلافة عمر.

ثانيًا : دورها في الجهاد :

لقد أبلت صفية رضى الله عنها بلاءً حسنًا فى الإسلام، ومن ذلك خوضها غمار الجهاد فى سبيل الله تعالى، لتضرب المثل والقدوة لكل امرأة صالحة، تريد أن تسلك طريق الآخرة، بإقبالها علي الله عز وجل، وطاعته فيما أمر، واجتناب ما نهى عنه وزجر.

أ ـ دورها في يوم أحد :

خرجت رضى الله عنها مع جند المسلمين فى ثُلة من النساء جهاداً فى سبيل الله ، فجعلت تنقل الماء، وتروي العِطاش، وتبْرى السهام، وتُصلح القِسِي[٢].

وكانت تود أيضًا أن ترقب المعركة حيث كان فيها ابن أخيها

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة (٤/ ٣٤٨ ـ ٣٤٩)، صور من حياة الصحابيات ـ د.عبد الرحمن رأفت الباشا (ص ٢١ : ٢٣).
(٢) القِسِي: جمع قوس وهو آلة الحرب يرمي بها بالسهام.

محمد رسول الله ﷺ وأخوها حمزة بن عبد المطلب أسد الله، وابنها الزبير ابن العوام حوارى نبى الله ﷺ.

وفوق ذلك كله كانت تريد أن تطمئن علي مصير الإسلام الذى اعتنقته، وهاجرت من أجله، وجاهدت لإعلاء شأنه.

فلما رأت المسلمين يتفرقون عن رسول الله ﷺ وينكشفون عنه إلاَّ قليلاً منهم، ووجدت المشركين يوشكون أن يصلوا إلى رسول الله ﷺ ويقتلوه، هبّت بكل قوة وعزيمة وانتزعت من يد أحد المنهزمين رمحه، ومضت تشق به الصفوف، وتزأر فى المسلمين قائلة : « **ويحكم، انهزمتم عن رسول الله؟!!** ».

فلما رآها النبى ﷺ وهى مقبلة، خشي عليها أن ترى أخاها حمزة وقد مثَّل به المشركون أبشع تمثيل، فأشار إلى ابنها الزبير قائلاً: «المرأة يا زبير، المرأة يا زبير»(١).

فأقبل عليها الزبير وقال: «يا أمَّه إليك ـ إليك يا أمَّه»(٢).

فقالت وهى لا تبالى بكلامه: تنحَّ لا أمَّ لك.

فقال لها الزبير: إن رسول الله يأمرك أن ترجعى.

فقالت: ولم؟ إنه قد بلغنى أنه قد مُثِّلَ بأخى، وذلك فى الله، فلما اطمأن الرسول ﷺ عليها، وعرف أنها قد علمت بموت أخيها قال للزبير: «خلِّ سبيلها يا زبير» ، فخلي سبيلها.

فسبحان الله ! كيف لم تجزع هذه المرأة ـ وهى أولاً وأخيراً امرأة ـ وقد رأت أصحاب رسول الله ﷺ ينكشفون عنه، وأنَّ أيدى المشركين تكاد تصلُ إليه ﷺ بالسوء؟!

لماذا لم تخف، وقد تفرق الرجال عن رسول الله ﷺ وهى امرأة، وماذا تفعل امرأة؟!

ولماذا أخذت رمحاً من أحد المنهزمين وسارعت إلى ميدان المعركة محاربة لا

---

(١) أى أبعدها.

(٢) أى ابتعدى يا أمّاه.

تخشي موتًا ولا تبكى علي دنيا، ولا تجزع لفراق ولد أو غيره، عندما علمت بموت أخيها؟!.

إنه الإيمان الحقيقى، الذى لا يهدأ إلاَّ وأن يعلن عن نفسه خالصاً لله تعالى إنه إيمان المرأة الصالحة عندما تعزف نفسها عن الدنيا، ويهفو قلبها لجنة ربها.

إنه الفهم الحقيقى لحقيقة هذا الدين، وهو أنه لا صوت يعلو علي صوت الدين، منهجاً وشرعةً وحياة تنتظم بأحكام هذا الدين.

فأين نساء المسلمين من مثل هذه المرأة الواعية المؤمنة؟!

ب ـ صفية في الخندق :

وكانت صفية تعيش دائمًا مع ابنها الزبير حوارى رسول الله ﷺ فى داره، وانتهي إلى المسلمين خبر الاتفاق بين قريش وغطفان ويهود بنى قريظة علي حرب رسول الله ﷺ وخروج الأحزاب من مكة بقيادة أبى سفيان، فضرب رسول الله ﷺ الخندق(١) على المدينة، وأمر بنسائه ونساء المسلمين، والأطفال فجعلوا فى الحصون والقلاع، وكان هذا رأى رسول الله ﷺ، ألا يشغل أحداً بنسائه ما دمن فى مكان آمن بعيد عن الأعداء، ونزلت صفية فى حصن حسان ابن ثابت شاعر الرسول ﷺ، وكان من أحسن آطام المدينة وأبنيتها، ونترك السيدة صفية تحكى ما حدث منها مع أحد اليهود أثناء إقامتهم فى الحصن.

قال ابن إسحاق: كانت صفية فى فارع حصن حسان بن ثابت قالت: وكان حسان بن ثابت معنا فيه مع النساء والصبيان، فمر بنا رجل من يهود فجعل يطيف بالحصن، وقد حاربت بنو قريظة وقطعت(٢) ما بينها وبين رسول الله ﷺ، وليس بيننا وبينهم أحد يدفع عنا،ورسول الله ﷺ والمسلمون فى

(١) الذى أشار علي النبى ﷺ بالخندق هو سلمان الفارسى.

(٢) وكان سعد بن أسد القرظي قد وادع رسول الله ﷺ علي قومه وعاقده علي عدم حربه حتى جاء نفر من يهود بني النضير وحزبوا الأحزاب ضد رسول الله ﷺ، فنقض القرظي عهده وبرأ مما كان بينه وبين الرسول ﷺ.

نحور عدوهم لا يستطيعون أن ينصرفوا عنهم إلينا إن أتانا آت، فقلت: يا حسان إن هذا اليهودى كما ترى يطيف بالحصن، وإني والله ما آمنه أن يدل علي عورتنا من وراءنا من يهود، وقد شغل عنا رسول الله ﷺ وأصحابه، فانزل اليه فاقتله، قال: يغفر الله لك يا ابنة عبد المطلب، والله قد عرفت ما أنا بصاحب[1]. قالت: فلما قال لى ذلك ولم أر عنده شيئًا، احتجزت[2] ثم أخذت عموداً[3] ثم نزلت من الحصن إليه فضربته بالعمود حتي قتلته[4]، فلما فرغت منه رجعت إلى الحصن، فقلت: يا حسان، انزل إليه فاسلبه، فإنه لا يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل. قال: ما لى بسلبه من حاجة يا ابنة عبد المطلب[5]. وقد ذكر ابن سعد أن هذه الحادثة وقعت فى أحد، والصحيح أنها فى الخندق؛ لأن غزوة أحد كانت فى سفح الجبل بعيداً عن الحصون والآطام.

وقد زاد الحاكم فى روايتها، قالت: أنا أول امرأة قتلت رجلاً، كنت فى فارع حسان بن ثابت، وكان حسان معنا فى النساء والصبيان حين خندق النبى ﷺ، وذكرت بقية القصة[6].

ثالثًا: دورها في تربية ولدها الزبير:

لم تتخل صفية بنت عبد المطلب رضي الله عنها عن تربية ابنها الزبير ابن العوام بعد وفاة زوجها، كما تفعل بعض النساء اليوم بحجة أن العبء أصبح عليها ثقيلاً، ولكن قامت بتربيته التربية الجادة حتي يصبح مجاهداً وداعيًا للإسلام، وعزفت عن الزواج من أجله .

---

(١) قد يكون الذى منع حسان من مشاركة الرسول ﷺ فى الحرب هو المرض أو ما شابهه، ونحن نستبعد أن يكون حسانًا جبانًا.

(٢) **احتجز**: شد وسطه.

(٣) المقرعة من الحديد.

(٤) فى رواية ابن حجر: حتى فتحت الباب قليلاً ثم حملت عليه فضربته بالعمود فقتلته.

(٥) ابن هشام ٣/ ٢٤٧.

(٦) المستدرك ٤/ ٥١.

نشأته علي الخشونة والبأس والفروسية والحرب، فكان لعبه في برى السهام وإصلاح القِسى، ودأبت علي أن تقحمه وتشاركه في كل أمر يمكن أن يخاف منه ، حتي ينشأ شجاعًا قويًا غير جبان.

وكانت إذا رأته تردد مرة أو جبُن ضربته ضربًا شديدًا، حتي إنها عُوتبت في ذلك من قِبَل أحد أعمامها حيث قال لها: ما هكذا يُضرب الولد، إنك تضربينه ضرب مُبغضة له لا ضرب أم، فأنشدت قائلة:

من قال قد أبغضته فقد كذِبْ وإنمـــا أضـــربه لكـــى يَلِـــبْ
ويهزم الجيش ويأتي بالسَّلَبْ

فقال عمها: يا بنى هاشم كفوا عنى شاعرتكم هذه.

من هذا الموقف الشامخ لصفية، ودورها البارز في تربيتها لابنها، لابد لنساء المسلمين أن يأخذن القدوة والمثل، وأن يسلكن الطريق الصحيح في تربية الأولاد.

وهل كل مسلمة مات زوجها وعندها أولاد، يجب عليها ألا تتزوج من بعده لتتفرغ لتربية أولادها؟ إن ذلك ليس بشرط، فكل امرأة يختلف حالها عن حال غيرها، وظروفها عن ظروف غيرها، فما ينفع لواحدة ربما لا ينفع الأخرى.

فمن النساء ربما لو لم تتزوج بعد موت زوجها لسارت في طريق الرذيلة، ومنهن من يغنيها أولادها والانشغال بتربيتهم ومسئولياتهم عن مجرد التفكير في الزواج، بل إن الإسلام شكر لها ذلك، وأجزل لها المثوبة، والأجر حينئذٍ ترغيبًا وثناءً.

عن سهل بن سعد مرفوعًا: «**أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**» ـ وأشار بالسبابة والوسطي، وفرَّج بينهما شيئًا [١].

وعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت : دخلت عليَّ امرأة ومعها ابنتان لها،

---

(١) رواه مسلم (رقم ٢٩٨٣).

تسأل، فلم تجد عندى شيئًا، غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل منها، ثم قامت، فخرجت ، فدخل النبى ﷺ، فأخبرته، فقال النبى ﷺ : « **من ابتلي من هذه البنات بشيء، فأحسن إليهن، كن له سترًا من النار** » (١) .

وهذه أم هانئ فاختة بنت أبى طالب رضي الله عنها أخت أمير المؤمنين عليّ رضي الله عنه، وبنت عم رسول الله ﷺ وراوية حديث الإسراء، فرّق الإسلام بينها وبين زوجها هبيرة، وكانت قد انكشفت منه عن أربعة بنين، فخطبها رسول الله ﷺ، فقالت أم هانئ: يا رسول الله؛ لأنت أحب إليّ من سمعي ومن بصرى، وحق الزوج عظيم، فأخشى إن أقبلت علي زوجي ـ تعنى رسول الله ﷺ ـ أن أضيّع بعض شأني وولدى، وإن أقبلت علي ولدى أن أضيّع حق زوجي. وهنا امتدحها النبى ﷺ ، وشكر لها ذلك، فقال: «**إن خير نساء ركبن الإبل نساءُ قريش، أحناه علي ولد فى صغره وأرعاه علي بعْل ـ أى زوج ـ فى ذات يده**» (٢) .

رابعًا : الرضا بقضاء الله ركن من أركان الإيمان :

وهذا ما حققته صفية بنت عبد المطلب بقولها: « **لقد رضيت بقضاء الله** » .

فالرضا: (باب اليقين الأكبر، وبستان العبودية الأخضر، وهو مستنزل الرحمة، ومستدر الزيادة، ومستوجب الرضا منه ﴿ **رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ [المائدة:١١٩].

والرضا مطردة للهموم والغموم، مذهبة للأحزان، وهو علاج التردد والحيرة والاضطراب؛ لأن التسليم بالحكمة، والتصديق بالشرع، والركون إلى اللطف والاطمئنان لحسن الاختيار، من دخل بيت الرضا فهو آمن، ومن استقبل كعبته

(١) رواه البخارى (٢٦١٤)، ومسلم (رقم ٢٦٢٩)، والترمذى (رقم ١٩١٦).
(٢) رواه البخارى (٩/ ١٠٧)، ومسلم (رقم ٢٠٢٧)، وغيرهما.

فهو مخبت، ومن صلى في محراب الرضا فهو حليم أوّاه منيب)[(١)] .

إن الرضا بقضاء الله وقدره، خيره وشره ، حُلوه ومُرّه، من لوازم الإيمان بالله تعالي والرضا به رباً، أما الرضا عند موافقة القضاء لرغباتك، والتسخط إذا خالف مرادك وهواك، فليس بصحيح، ولا بطريق المخبتين لله تعالى الراضين عنه.

(لقد كان الأعراب يُسْلمون، فإذا وجدوا فى الإسلام رَغَداً بنزول غيث، ودَرَّ لبن، ونبْت عشب، قالوا: هذا دين خير، فانقادوا وحافظوا علي دينهم.

فإذا وجدوا الأخرى، جفاف وقحط وجدب واضمحلال فى الأموال وفناء للمرعى، نكصوا على أعقابهم وتركوا رسالتهم ودينهم.

هذا إذن إسلام الهوي ، وإسلام الرغبة للنفس.

إن هناك أناساً يرضون عن الله عز وجل، لأنهم يريدون ما عند الله عز وجل يريدون وجهه، يبتغون فضلاً من الله ورضواناً، يسعون للآخرة.

إن من يرشحه الله للعبودية ويصطفيه للخدمة ويجتبيه لسدانة الملّة، ثم لا يرضى بهذ الترشيح والاصطفاء والاجتباء، لهو حقيق بالسقوط الأبدى والهلاك السرمدي ﴿آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعهُ الشَّيْطَانُ فكَانَ من الْغَاوين﴾، ﴿ولَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأَسْمَعَهُمْ ولَوْ أَسْمَعَهُمْ لتولَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾.

إن الرضا بوابة الديانة الكبري، منها يلج المقربون إلى ربهم، الفرحون بهداه، المنقادون لأمره، المستسلمون لحكمه)[(٢)] .

خامساً : الصبر والاحتساب ثمرة الإيمان الحقيقي بالقضاء والقدر :

إن عقيدة الإيمان بالقضاء والقدر إذا رسخت فى نفس المسلمة، وقرت فى ضميرها ، صارت البلية عندها عطية، والمحنة منحة، والألم سعادة ورضى بتكفير الله تعالى لها من ذنوبها.

---

(١) حدائق ذات بهجة ـ للشيخ عائض القرنى (ص ٧٩).

(٢) لا تحزن ـ للشيخ عائض القرنى (ص ٣٥٣، ٣٥٤).

فهنيئًا (لأهل المصائب صبرهم ورضاهم عن الآخذ، المعطى، القابض، الباسط، ﴿لا يُسْأَلُ عمَّا يفعَلُ وَهُمْ يسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولن تهدأ أعصابك، وتسكن بلابل نفسك، وتذهب وساوس صدرك حتى تؤمن بالقضاء والقدر.

جفّ القلم بما أنت لاقٍ، فلا تذهب نفسك حسرات. لا تظن أنه كان بوسعك إيقاف الجدار أن ينهار، وحبس الماء أن ينسكب، ومنع الريح أن تهبّ، وحفظ الزجاج أن ينكسر، هذا ليس بصحيح، علي رغمي ورغمك سوف يقع المقدور، وينفذ القضاء، ويحل المكتوب، ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

استسلم للقدر قبل أن تطوّق بجيش السخط والتذمر والعويل. اعترف بالقضاء قبل أن يدهمك سيل الندم.

إذاً فليهدأ بالك إذا فعلت الأسباب، وبذلت الحيل، ثم وقع ما كنت تحذر، فهذا هو الذى كان ينبغى أن يقع، ولا تقل: «لو أنى فعلت كذا كان كذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل» (١).

وإن للإيمان بالقدر ـ إن استقرت حقيقته فى قلب المسلمة ـ ثمرات عظيمة منها:

١ ـ الاعتماد على الله تعالى:

وتمام التوكل عليه، عند فعل الأسباب، بحيث لا يتعلق قلب المسلمة بالسبب نفسه، وإنما بالمسبب جل وعلا وحده؛ لأنها تعلم تمامًا أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وهو مكتوب لا مفر منه.

٢ ـ الطمأنينة وراحة النفس وعدم القلق:

لأنها تعلم يقيناً أن حكم الله تعالي ماضٍ فيها، وأن قضاءه سبحانه وتعالي

---

(١) حدائق ذات بهجة (ص ٦١، ٦٢).

عدلٌ فيها، وهو كائن لا محالة، وفي ذلك يقول الله تعالي: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِّكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد:٢٢] .

٣ ـ عدم اليأس علي ما فات:

فقد تظن المسلمة أنها لو فعلت كذا كان كذا، وتتحسر أنها لم تفعله، وفي الحقيقة أن ما أخطأها لم يكن ليصيبها، وما أصابها لم يكن ليخطئها، فما كُتب لها هو الذى ستحصل عليه، والذى لم يُكتب فلن تتحصل عليه، ولن تناله بحال من الأحوال ، فحينئذ لا تيأس على ما فات ولا تندم.

٤ ـ الصبر والاحتساب :

قال تعالى : ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [التغابن:١١] ، فالمسلمة إذا أصيبت بمصيبة وعلمت أنها بقضاء الله وقدره، صبرت واحتسبت، وجزاها الله بهداية قلبها الذى هو أصل كل سعادة.

قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة، فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويُسلم.

وقال سعيد بن جبير: ﴿وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ يعني يسترجع: يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون.

وعن أم سلمة أنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من مسلم تصيبه مصيبة فيقول ما أمره الله ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيراً منها، إلا أخلف الله له خيراً منها »[١] .

---

(١) رواه مسلم وابن ماجة.

موقف أسماء بنت أبي بكر

مع ابنها قبل مصرعه

موقف أسماء بنت أبي بكر مع ابنها قبل مصرعه

لم ينس التاريخ أن يسجل لنا حواراً رائعاً دار بين أسماء وابنها عبد الله، بين ابن بار تجاوز السبعين، وأم اقتربت من المئة، فقدت بصرها ولا عون لها فى هذه الحياة إلا هذا الابن الذى تخلى عنه الجميع حتى أولاده، ولم يبق معه إلا النزر القليل من الصحاب. يقول أصحاب السير: ودخل عبد الله على أمه أسماء فقال: يا أمَّه، خذلنى الناس، حتى ولدى وأهلى، ولم يبق إلا اليسير ممن ليس عنده من الدفع إلا صبر ساعة، والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت:

« والله يا بنى أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق فامض له فقد قتل عليه أصحابك، وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت، أهلكت نفسك ومن قتل معك!! وإن قلت: إنى على حق فلما وهن أصحابي ضعفت، فهذا ليس فعل الأحرار ولا أهل الدين».

فدنا ابن الزبير فقبَّل رأسها، وقال : هذا رأيي، ولكن أحببت أن أعلم رأيك، فزدتنى بصيرةً، فانظرى يا أماه إنى مقتول من يومى هذا، فلا يشتد حزنك لأمر الله، فإن ابنك لم يتعمد إتيان منكر، ولا عمل بفاحشة ولم يُجرْ فى حكم، ولم يتعمد ظلم مسلم ولا معاهد، اللهم إنى لا أقول هذا تزكية لنفسى، ولكن تعزية لأمى، لتسلو عنى.

فقالت أمُّه: إنى لأرجو أن يكون عزائى فيك حسناً، أخرج حتى أنظر إلى ما

يصير إليه أمرك، ودعت له قائلة: اللهم ارحم طول ذلك القيام في الليل الطويل، وذلك التحنث والظمأ في الهواجر بالمدينة ومكة وبره بأبيه[١] وبي، اللهم قد أسلمته لأمرك فيه، ورضيت بما قضيت، فأثبني في عبد الله ثواب الشاكرين الصابرين، ثم شكا إليها خوفه من أن يُمَثَّل به بعد موته فقالت كلمتها المشهورة: إن الكبش إذا ذبح لم يأمن السلخ، أو لم يألم من السلخ.

ثم دنا عبد الله من أمه، فتناول يدها وقبّلها وعانقها ـ وكان عليه درع ـ فلما عانقها وجدت[٢] مس الدرع فقالت: ما هذا صنيع من يريد ما تريد، قال: ما لبستها إلا لأشد منك، قالت: فإنها لا تشد مني، فنزعها ثم أدرج كمه وأدخل أسفل قميصه جبّة خزٍّ كانت عليه من أسفل المنطقة وخرج وأمه تقول: اصبر إن شاء الله تعالى، أبواك أبو بكر والزبير، وأمك صفية بنت عبد المطلب[٣].

(١) كان الزبير قد قتل في معركة الجمل سنة ٣٦ هـ وله من العمر ٦٨ سنة.

(٢) هذا يعني أنها فقدت بصرها قبل ذلك بخلاف من قال إنها عميت بعد مقتل عبد الله وهي رضي الله عنها تستغرب منه وقد استعد للموت أن يلبس الدرع ليتقي به الطعن.

(٣) انظر «صور من حياة الصحابيات» ص (٥٤: ٥٩)، و«صحابيات حول الرسول» ص (٢٢، ٢٣).

﴿ الدروس والعبر ﴾

أولاً : من هي أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها؟ :

والدة عبد الله بن الزبير بن العوام التيمية، وهى بنت أبى بكر الصديق.

وأمها قتلة أو قتيلة بنت عبد العزي، قرشية من بنى عامر بن لؤى.

أسلمت قديماً بمكة، قال ابن إسحاق: بعد سبعة عشر نفساً، وتزوجها الزبير بن العوام وهاجرت وهى حامل منه بولده عبد الله، فوضعته بقباء.

وعاشت إلى أن ولي ابنها الخلافة ، ثم إلى أن قتل وماتت بعده بقليل، وكانت تلقب ذات النطاقين، قال أبو عمر: سماها رسول الله صلي الله عليه وآله وسلم؛ لأنها هيأت له ـ لما أراد الهجرة ـ سفرة، فاحتاجت إلى ما تشدها به، فشقت خمارها نصفين، فشدت بنصفه السفرة، واتخذت النصف الأخر منطقاً، قال : كذا ذكر ابن إسحاق وغيره[1] .

ثانيًا : المجاهدة الصابرة :

* كان لبيت أبى بكر الصديق رضى الله عنه دوراً بارزاً وفعالاً فى هجرة النبى ﷺ، وكانت أسماء أحد هذه العناصر التى لم تألُ جهداً فى ذلك.

فقد لُقبت بذات النطاقين، وذلك؛ لأنها صنعت لرسول الله ﷺ ولأبيها يوم الهجرة من مكة إلى المدينة زاداً وسقاءً[2] ، فلمّا لم تجد ما تربطهما به شقت

---

(١) الإصابة (٤/ ٢٢٩ ـ ٢٣٠) .

(٢) السِّقاء: القربة وغيرها مما يوضع فيه الماء.

نطاقها[١] شقين، فربطت بأحدهما المِزْوَد[٢]، وبالثانى السقاء.

فدعا لها النبى ﷺ أن يُبدلها الله منهما نطاقين فى الجنة.

* وتظهر لنا صورة أخرى مشرقة من مواقف أسماء بنت أبى بكر بعد قتل ولدها.

يقول ابن عبد ربه الأندلسى: «وقتل ابن الزبير، وحزَّ الحجاج رأسه، وبعث به إلى عبد الملك بن مروان فى الشام، ثم أقبل على أم عبد الله أسماء بنت أبى بكر ليعزيها، فأذنت له.

فقالت: يا حجاج قتلت عبد الله؟

قال: يا ابنة أبى بكر إنى قاتل الملحدين.

قالت: بل قاتل المؤمنين الموحدين.

قال لها: كيف رأيت ما صنعتُ بابنك؟

قالت: رأيتك أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك، ولا ضير أن أكرمه الله على يديك، فقد أُهدى رأس يحيي بن زكريا إلى بغى من بغايا بنى إسرائيل»[٣].

ولم يكتف الحجاج بالقتل بل صلبه بغير رأسه قرابة الشهر، حتى تقطعت أوصاله، فدخلت أسماء على الحجاج وقالت:

أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟

---

(١) النطاق: ما تشدُّ المرأة به وسطها.
(٢) المزود: كيس يوضع فيه الزاد للمسافر.
(٣) العقد الفريد (٤/ ٤١٨).

قال: المنافق ؟

قالت: لا ، والله ما كان منافقاً، وقد كان صواماً قواماً.

قال: اذهبى فإنك عجوز قد خرفت.

فقالت: لا والله ما خرفت، سمعت رسول الله ﷺ يقول: « يخرج من ثقيف كذاب ومبير »[(١)] ، فأما الكذاب فقد رأيناه[(٢)] ، وأما المبير فأنت هو والآخر منهما شر من الأول، وغسلت أسماء ابنها وكفنته وصلت عليه.

هكذا خاطبت أسماء بنت أبى بكر قاتل فلذة كبدها بكل قوة وصرامة، لا خور ولا ضعف يظهر من خلال حديثها، فقد كانت على الحق ، ولم تبغ غيره، لم تخف منه وتخشاه، فإن خوفها وخشيتها تعالى ملأ كل قلبها وكيانها، حتى ما ترك مكاناً للخوف والخشية من غير الله عز وجل.

وهكذا يعمل الإيمان فى نفوس الناس، إذا استقر فى القلوب استقرار الواثق بنصر الله تعالى وتأييده، استقرار من توكل على الله تعالى حق توكله، فهانت عليه الدنيا وزينتها.

ثالثًا : خدمتها لزوجها الفقير :

لقد ضربت أسماء ﷺ مثلاً حيًا ونموذجًا رائعًا لتقتدى به النساء من بعدها، ولتستحيي منه نساء اليوم.

وذلك بصبرها على شظف العيش مع زوجها، والحرص على مرضاته، وطاعته، والقيام بخدمته دون تأوه أو ضجر خير قيام.

---

(١) المبير: الذى يسرف فى إهلاك الناس.

(٢) تقصد المختار بن عبيد بن مسعود الثقفى أحد الثائرين الخارجين على بنى أمية، قيل: إنه ادعى النبوة، قتل سنة ٦٧ هـ. (صحابيات حول الرسول ص ٢٤).

لقد تزوجها الزبير بن العوام، وكان شاباً فقيراً، فكانت له نعم الزوجة الصالحة، تخدمه وتسوس فرسه، وترعاه، وتطحن النوى لعلفه، حتى فتح الله عليه فغدا من أغنى أغنياء الصحابة.

تقول ﷺ عن نفسها: تزوجني الزبير وما له شيء غير فرسه، فكنت أسوسه، وأعلفه، وأدق لناضحه النوي، وأستسقي، وأعجن، وكنت أنقل النوي من أرض الزبير ـ التي أقطعه رسول الله ﷺ ـ على رأسي وهي على ثلثي فرسخ (١).

فجئت يومًا والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ﷺ ومعه نفر فدعاني، فقال: « إخْ إخْ » (٢) ليحملني خلفه، فاستحييت وذكرت الزبير وغيرته.

قالت: فمضى، فلمّا أتيت أخبرت الزبير، فقال: والله لحَمْلُك النوى كان أشدَّ عليَّ من ركوبك معه.

لقد كان بيتهما بيتًا من بيوت الإيمان، نشأت فيه شجرة التقوى، وأصبحت وارفة الظلال.

وكان من ثمار ذلك: خضوع أسماء لزوجها بالرضى والطاعة والقناعة، ما ضجرت يومًا وتركت البيت لتشكي لأهلها زوجها الفقير، فاقد الإمكانيات والترف، ولكنه الإيمان عندما يستقر في القلب استقراراً صادقاً.

كم من النساء ـ للأسف ـ تمردن على الحياة المتواضعة مع أزواجهن حتى سلكن طريق الشيطان لتحقيق رغباتهن الدنيوية الزائفة ، فهجرن الأزواج والأولاد حتى دمرت الأسرة، وصفحات الجرائد والمجلات يوميًا ملآنة بمآسي

---

(١) الفرسخ: ٦٠٠ ,١ كم.

(٢) إخ إخ: صوت يناخ به الجمل.

كثيرة تصور لنا هذا الواقع الأليم.

فمهلاً يا نساء المسلمين!

مهلاً أن تقعن في حبائل الدنيا وزينتها فتُهلككن[١]!

إن القناعة سبب السعادة، والغنى غنى النفس، والمرء إذا ترك نفسه على سجيتها لا يشبعها شيء بل تتمرد وتقول هل من مزيد؟!

إن المرأة التي لا تعرف طريق القناعة، إنما هي في الحقيقة لا تعرف طريق السعادة، بل هي بذلك تقوض أركان بيتها بإدخال الحزن والهم على زوجها وأولادها، ولن تأخذ من الدنيا إلاَّ ما قُدر لها.

كم من الناس الذى يملكون من أسباب الدنيا أكثر مما نملك، ولكنهم لا يملكون ما ننعم به من نعمة القناعة والراحة والطمأنينة والسعادة داخل البيت، فلنرضى بما قسم الله لنا نكن أسعد الناس.

قال بعض العارفين: يا ابن آدم إذا سلكت سبيل القناعة فأقل شيء يكفيك، وإلاَّ فإن الدنيا وما فيها لا تكفيك.

(إن القناعة تضفي على النفس الرضا والسعادة والطمأنينة، وتورث صاحبها عزة، فلا يقبل الهوان، ولا ركوب الحرام للاستكثار من المنافع المادية.

إن المال الكثير، والمتاع الفاخر، ليس نعمة دائمًا، بل قد يكون فتنة، فاقنعي بما آتاك الله، وارغبي في الآخرة)[٢].

---

(١) للمؤلف رسالة بعنوان: «مهلاً يا نساء المسلمين» ضمن سلسلة: «المرأة الصالحة»، فلتراجع.
(٢) نظرات في الأسرة المسلمة بتصرف (ص ١١٣) للدكتور محمد لطفي الصباغ.

رابعاً : الجوادة السَخيَّة :

صبرت رضي الله عنها على حالتها المتواضعة مع زوجها الزبير من شظف العيش والحرمان الشديد، وبعد هذا الصبر كله، كانت العاقبة أن انصبت عليها وعلى زوجها النِّعم، ولكن لم تبطر بها، بل كانت سخية كريمة، وكانت من الجود بحيث يضرب بجودها المثل.

حدَّث ابنها عبد الله قال :

«ما رأيت امرأتين قطُّ أجودَ من خالتي عائشة وأمي أسماء، لكن جودهما مختلف: أما خالتى فكانت تجمع الشيء إلى الشيء، حتى إذا اجتمع عندها ما يكفي، قَسَمَتْهُ بين ذوى الحاجات، وأمَّا أمى فكانت لا تُمسك شيئًا إلى الغد».

(وكانت أسماء كريمة سخية معطاءة، حتى فى أوائل أيام زواجها، عندما كان الزبير فقيراً، وطالما تمنت أن تعطى، وتتصدق ، لكن أين السبيل؟

ولم تجد بداً من سؤال رسول الله ﷺ قائلة: يا نبى الله ليس فى بيتى شيء إلاَّ ما أدخل عليَّ الزبير، فهل عليَّ جناح أن أرضخ[1] مما أدخل عليَّ؟

فقال ﷺ: **«ارضخى ما استطعت ولا توكى[2] فيوكَي عليك»**[3].

فبذرة الإنفاق والسخاء فى طبعها، رعاها رسول الله ﷺ حتى نمت وترعرعت ، وصارت درساً تلقن أسماء بناتها وأهلها قائلة:

« أنفقن وتصدقن ولا تنتظرن الفضل، فإنكن إن انتظرتن الفضل لم

---

(١) الرضخ: العطاء القليل.
(٢) توكي: تمسكي.
(٣) متفق عليه.

تفضلن شيئاً » [١].

والمرأة فى كثير من الأحيان، نظراً لانشغالها بمهام البيت، ومسئوليات الزوج والأبناء، ربما تغفل عن البذل والإنفاق فى سبيل الله تعالى، لذا وجب تذكيرها وحثها على ذلك، ولذلك قال ﷺ: « **تصدقن يا معشر النساء ولو من حُليكن »** [٢].

وروت أمُّ سِنان الأسلمية رضي الله عنها فى غزوة العسرة حين قالت: « لقد رأيت ثوبًا مبسوطًا بين يدى النبى ﷺ فى بيت عائشة رضي الله عنها، فيه مُسك ومعاضد وخلاخيل وأقرطة، وخواتيم، وقد مُلئ مما بعث من النساء يُعنَّ به المسلمين فى جهازهم ».

فهذا يا نساء المسلمين كان حال نساء الصحابة فى ذلك الزمن، فأين الهمم العالية، والقلوب الحية، والمشاعر الحسَّاسة للمسلمين والمسلمات الذين لا يجدون إلا كِسرة خبز يدفعونها بجرعة ماء، وقطعة قماش توارى شيئًا من جسدهم ، يتقلبون بين برد قارصٍ أو حرٍ شديدٍ، فضلاً عن المسلمين والمسلمات المضطهدين فى أنحاء كثيرة من العالم يريدون بذل كل مسلم ومسلمة إليهم بالمال والطعام والكساء.

يا نساء المسلمين !

إنكن تنفقن كثيراً على الزينة والملابس والحلى ومتاع البيت بلا حاجة، ولو أنكن أنفقتن نصف ذلك على أخواتكن المحتاجات، لما بقى هذا العدد الكبير من الفقراء والأرامل والأيتام المعدودين فى بلدتكم، أو فى غيرها فى بلاد المسلمين.

---

(١) صحابيات حول الرسول ـ د.عبد الصبور شاهين، والأستاذة إصلاح الرفاعى (ص٢٧).
(٢) رواه البخاري فى الزكاة .

يا نساء المسلمين !

إنكن فى مجالسكن تكثرن الغيبة والنميمة واللغو والكلام فيما لا يعنى، والسباب ، والدعاء على الأبناء وغير ذلك من آفات اللسان، وكل ذلك يُعدُّ من الخطايا، والخطايا تطفئها الصدقة، فهُبوا إليها ابتغاء وجه الله والدار الآخرة، كما قال ﷺ: « الصبر جُنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يُطفئ الماء النار »[(١)] .

خامساً : الذكية العاقلة :

كانت أسماء ﵂ من النساء العاقلات، اللاتى يحسن التصرف فى المواقف الحرجة ، هذا وإن دلَّ فإنما يدل على رجاحة عقلها.

من ذلك أنه لمَّا خرج الصديق مهاجراً بصحبة رسول الله ﷺ حمل معه ماله كله، ومقداره ستة آلاف درهم ، ولم يترك لعياله شيئاً.

فلمَّا علم والده أبو قحافة برحيله ـ وكان ما يزال مشركًا ـ جاء إلى بيته وقال لأسماء:

والله إنى لأراه قد فجعكم بماله بعد أن فجعكم بنفسه.

فقالت له: **كلا يا أبت... إنه قد ترك لنا مالاً كثيراً**. ثم أخذت حصي ووضعته فى الكوة[(٢)] التى كانوا يضعون فيها المال، وألقت عليه ثوباً، ثم أخذت بيد جدها ـ وكان مكفوف البصر ـ وقالت:

يا أبت، انظر كم ترك لنا من المال.

فوضع يده عليه وقال:

---

(١) حديث صحيح :(صحيح الترغيب والترهيب للألبانى برقم ٨٦٢).

(٢) **الكوة**: تجويف فى الحائط، أو نافذة صغيرة.

لا بأس.. إذا كان تركك لكم هذا كله فقد أحسن.

وقد أرادت بذلك أن تُسكّن نفس الشيخ وألا تجعله يبذل لها شيئًا من ماله، ذلك لأنها كانت تكره أن تجعل لمشرك عليها معروفًا حتى لو كان جدها[١].

سادسًا: الحوار الخالد - عبر وعظات:

هذا الحوار الخالد الذى دار بين أسماء بنت أبى بكر وكانت وقتها قد كف بصرها وهى امرأة عجوز فانية، وبين ابنها عبد الله بن الزبير رضى الله عنه، لجدير بأن نقف أمامه نستلهم منه العبر والعظات، ونسترشد به فى تربيتنا لأنفسنا ولأولادنا.

وهاهنا نأخذ بعض مقاطع هذا الحوار...

فقُبيل مصرعه بساعات دخل على أمه أسماء بعد أن ألقى عليها السلام، قالت: له: « **ما الذى أقدمك فى هذه الساعة، والصخور التى تقذفها منجنيقات الحجاج على جنودك فى الحَرَم تهزُّ دور مكة هزًا؟!** ».

امرأة عجوز فانية قد كف بصرها، لماذا لا تحافظ على ابنها من أن تناله رماح القوم فيموت أو يُصاب على الأقل بأذى فى جسده؟ فى الوقت الذى نرى فيه أمهات اليوم يخفن على أولادهن إذا أردوا أن يحافظوا على صلاة الفجر فى المسجد... يخفن عليهم من الظلام أو شدة البرد!

وأخريات يخفن على أولادهن وبناتهن أن يسيروا فى طريق الالتزام بالدين، بل وربما وقف بعض أولياء الأمور حجر عثرة فى سبيل ارتداء الفتاة للحجاب الشرعى!

ولكن أسماء رضي الله عنها تضرب لنا جميعًا المثل والقدوة فى قوة الإيمان والفهم

---

(١) انظر: كنز العمال لعلاء الدين البرهان فدرى(١٦/ ٦٨١) ، والسيرة النبوية لابن هشام(٢/ ٣٤٠).

الصحيح لطبيعة هذا الدين.

فتتعجب من مجيئه والآلات الحربية التى تقذف الصخور من جيش الحجاج على جنود الزبير فى الحرم، من لها، ومن يدافع عن بيضة هذا الدين؟!

لم تحتضنه، وتأخذه بجوارها خوفًا من الأعداء، ولكنها تلومه على مجيئه. ولكن يبين لها سبب مجيئه، فقد خزله الناس ورجعوا عنه خوفًا من الحجاج أو رغبة بما عنده حتى أقرب الناس إليه انفضوا من حوله.

ولكنها ﵂ لم تأبه بهذه الإجابة ولم تقنع بها، بل علا صوتها وقالت: **« الشأن شأنك يا عبد الله، وأنت أعلم بنفسك ، فإن كنت تعتقد أنك على حق، وتدعو إلى حق ، فاصبر وجالد كما صبر أصحابك الذين قتلوا تحت رايتك ، وإن كنت إنما أردت الدنيا، فلبئس العبد أنت، أهلكت نفسك، وأهلكت رجالك »**.

قالت ﵂ ذلك بكل قوة، وهى تضرب المثل الحى لنساء المسلمين، لتعلمهن كيف يربين أولادهن على الاعتزاز بالدين، والتمسك بالحق، والتجافى عن دار الغرور.

لقد أوصته بالصبر إن كان يعلم أنه على الحق، وتُذكره بأصحابه الذين قتلوا من أجل الحق، وهو ليس بأقل منهم.

وتحذره من الدنيا إن كانت هجرته لها، وهويته إليها، وفى ذلك الهلاك لنفسه ولمن معه.

قال : « ولكني مقتول اليوم لا محالة » .

قالت: « ذلك خيرٌ لك من أن تُسلم نفسك للحجاج مختاراً، فيلعب برأسك غِلْمان بنى أمية ».

لا زالت رضي الله عنها تثبته على الحق، وترد عنه وساوس الشيطان، حتى بعدما أكدَّ لها أنه مقتول لا محالة، ولكنها التربية الإيمانية تتوالى قولاً بعد آخر، ولذلك أشرقت أسارير وجهه فى النهاية، ودعا لأمه وبين لها أنه ما وهن ولا ضعُف، وإنما خشى أن تُستباح محارم الله.

ثم قال لها بعد أن ظهر أن طريقهما واحد، وهدفهما واحد:

« وهأنذا ماضٍ إلى ما تحبين، فإذا أنا قتلت فلا تحزني عليّ وسلّمي أمرك لله » .

قالت: « إنما أحزن عليك لو قُتلت في باطل ».

هكذا يجب أن يكون موقف الأم الصالحة ، التى لا تبالى بأى سوء يلحق بابنها ما دام على الحق، فهى لا تبالى بكلام الناس، وهمزهم ولمزهم، لأن أولادها مثلاً يحرصون على صلاة الجماعة فى المسجد، أو أن بناتها قد ارتدين الحجاب، وخلعن عن أنفسهن لباس العرى والتهتك والانحلال.

فإذا كان هذا هو موقف الأم الواعية، فلابد أن ينشأ من ورائها جيل صالح يسوقها إلى الجنة، وتسوقهم إليها، ينتفع بهم المجتمع، وتسعد بهم البشرية.

وهذا ما ظهر من كلام ابن الزبير «فإذا أنا قتلت فلا تحزنى وسلّمى أمرك ».

وعند الوداع طلب منها أن تدعو له، فبماذا تضرعت الأم إلى ربها لولدها؟

توسلت وتضرعت بطاعته لله تعالى الواجب منها والمستحب فقالت:

« اللهم ارحم طول قيامه.. وشدة نحيبه فى سواد الليل والناس نيام.

اللهم ارحم جوعه وظمأه فى هواجر المدينة، ومكة وهو صائم.

اللهم ارحم برّه بأبيه وأمه.

اللهم إنى قد سلمتُه لأمرك ، ورضيتُ بما قضيت له، فأثبنى عليه ثواب الصابرين » .

موقف نسيبة المازنية

عند ما بلغها موت ابنها

موقف نسيبة المازنية عند ما بلغها موت ابنها

نعى الناعي حبيب بن زيد إلى أمه نسيبة المازنية فما زادت على أن قالت:

«من أجل مثل هذا الموقف أعددته..

وعند الله احتسبته..

لقد بايع الرسول ﷺ ليلة العقبة صغيراً..

ووفّى له كبيراً..

ولئن أمكنني الله من مسيلمة لأجعلن بناته يلطمن الخدود عليه..».

الدروس والعبر

أولاً : من هي نسيبةُ المازنية ؟ :

نَسيبة ـ بفتح النون ـ بنت كعب بن عمرو بن عوف بن عمرو بن مندول بن عمرو ابن غنم بن مازن بن البحار الأنصارية، أم عمارة مشهورة بكنيتها واسمها معاً (١).

قال ابن عبد البر: وهى أم حبيب وعبد الله ابنى زيد بن عاصم، كانت قد شهدت بيعة العقبة، وشهدت أحداً مع زوجها زيد بن عاصم ومع ابنيها حبيب وعبد الله فيما ذكر ابن إسحاق، ثم شهدت بيعة الرضوان، ثم شهدت مع ابنها عبد الله وسائر المسلمين اليمامة.

وروى عكرمة مولي ابن عباس عن أم عمارة الأنصارية أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت: ما أري كل شيء إلا للرجال ، وما أرى النساء يذكرن، فنزلت هذه الآية:﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ... ﴾ (٢).

ثانيًا : بيعة العقبة الثانية (٣) :

روى ابن إسحاق وعنه أحمد وغيره من حديث كعب بن مالك فى قصة العقبة الثانية قال: «فنمنا تلك الليلة مع قومنا فى رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لمعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا فى الشعب عند العقبة ونحن ثلاثة وسبعون رجلاً ومنا امرأتان من نسائنا

(١) الإصابة(٤/ ٤١٨) .

(٢) الاستيعاب فى أسماء الأصحاب (المصدر السابق٤/ ٤٧٥).

(٣) انظر: «وقفات تربوية مع السيرة النبوية» للشيخ أحمد فريد حفظه الله(١٢٩ : ١٣٤) .

نسيبة بنت كعب، أم عمارة إحدي نساء بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدى بن نابى إحدى نساء بنى سلمة، وهى أم منيع. قال فاجتمعنا فى الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه العباس ابن عبد المطلب، وهو يومئذٍ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه ويتوثق له، فلما جلس كان أول متكلم العباس بن عبد المطلب.

فقال: يا معشرالخزرج - قال وكانت العرب يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها: إن محمداً منّا حيث قد علمتم وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه، فهو فى عزٍّ من قومه ومنعة فى بلده، وإنه قد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه فى عزٍّ ومنعة من قومه وبلده، قال فقلنا له: قد سمعنا ما قلت، فتكلم يا رسول الله فخذ لنفسك ولربك ما أحببت.

قال: فتكلم رسول الله ﷺ فتلا القرآن ودعا إلى الله ورغب فى الإسلام قال: « **أبايعكم على أن تمنعونى ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم** » ، قال: فأخذه البراء بن معرور بيده ثم قال: نعم والذى بعثك بالحق لنمنعك ما نمنع منه أزرنا فبايعنا يا رسول الله فنحن والله أهل الحروب وأهل الحلقة ورثناها كابراً عن كابر. قال: فاعترض القول والبراء يكلم رسول الله ﷺ أبو الهيثم بن التيهان فقال: يا رسول الله إن بيننا وبين الرجال حبالاً، وإنا قاطعوها - يعنى اليهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله ﷺ ثم قال: « **بل الدم الدم والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم منى، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم** » [(١)].

(١) قال ابن هشام: ويقال الهدم الهدم: أى ذمتي ذمتكم وحرمتي حرمتكم - سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (٣/ ١٨٩).

قال كعب: وقد قال رسول الله ﷺ: « **أخرجوا إليَّ منكم اثنى عشر نقيبًا ليكونوا على قومهم بما فيهم** » فأخرجوا منهم اثنى عشر نقيبًا تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس. قال كعب: كان أول من ضرب على يد رسول الله ﷺ البراء بن معرور ثم بايع بعده القوم.

فلما بايعنا رسول الله ﷺ صرخ الشيطان من رأس العقبة بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب (١) هل لكم فى مذمم والصباة (٢) معه قد اجتمعوا على حربكم. قال: فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أزب (٣) العقبة، هذا أزب العقبة**» ويقال ابن أزيب استمع أى عدو الله أما والله لأفرغن لك. قال ثم: قال رسول الله ﷺ: « **ارفضوا إلى رحالكم** » قال: فقال له العباس بن عبادة بن فضلة: والله الذى بعثك بالحق إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا قال: فقال رسول الله ﷺ: « **لم نؤمر بذلك ولكن ارجعوا إلى رحالكم** » قال: فرجعنا إلى مضاجعنا فنمنا عليها حتى أصبحنا، فلما أصبحنا غدت علينا جلة قريش حتى جاءونا فى منازلنا فقالوا: يا معشر الخزرج إنه قد بلغنا أنكم قد جئتم إلى صاحبنا هذا تستخرجونه من بين أظهرنا وتبايعونه على حربنا، وإنه والله ما من حى من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، قال: فانبعث من هناك عن مشركى قومنا يحلفون بالله ما كان من هذا شىء، وما علمناه. قال: وقد صدقوا، لم يعلموه، قال وبعضنا ينظر إلى بعض قال: ثم قام القوم وفيهم الحارث بن هشام بن المغيرة المخزومى، وعليه نعلان جديدان قال: فقلت له كلمة ـ كأنى أريد أن أشرك القوم بها فيما قالوا: يا أبا جابر أما

---

(١) الجباجب: المنازل.
(٢) الصباة : أى الذين خرجوا عن دين آبائهم.
(٣) أزب العقبة: شيطانها، والأزب: القصير الماكر والبخيل الخبيث.

تستطيع أن تتخذ وأنت سيد من ساداتنا مثل نعلي هذا الفتى من قريش؟ قال: فسمعها الحارث فخلعها من رجليه ثم رمى بها إليّ وقال: والله لتنعلنهما، قال: يقول أبو جابر: مه أحفظت والله الفتى فاردد إليه نعليه قال: قلت: لا والله لا أردهما فأل والله صالح لئن صدق الفأل لأسلبنه »(١).

الفوائد والآثار الإيمانية :

١ ـ قال الغزالي :

تلكم بيعة العقبة وما أبرم فيها من مواثيق وما دار فيها من محاورات. إن روح اليقين والفداء والاستبسال سادت هذا الجمع وتمشت فى كل كلمة قيلت، وبدا أن العواطف الفائرة ليست وحدها التى توجه الحديث أو تملى العهود، كلا فإن حساب المستقبل روجع مع حساب اليوم، والمغانم المتوقعة نظر إليها قبل المغانم الموهومة .

فقد جاءوا من يثرب مؤمنين أشد الإيمان، وملبين داعى التضحية مع أن معرفتهم بالنبى ﷺ كانت لمحة عابرة غبرت عليها الأيام، وكان الظن بها أن تزول. لكننا لا يجوز أن ننسى مصدر هذه الطاقة المتأججة من الشجاعة والثقة، إنه القرآن، لئن كان الأنصار قبل بيعته الكبرى لم يصحبوا الرسول إلا لمامًا، إن الوحى المشع من السماء أضاء لهم الطريق وأوضح الغاية.

لقد نزل بمكة قريب من نصف القرآن، سال على ألسنة الحفاظ وتداولته

---

(١) رواه ابن هشام عن ابن إسحاق (٢/ ١٨٧ ـ ١٩٢) بأطول من هذا وعنه أحمد فى المسند (٣/ ٤٦٠ ـ ٤٦٣)، والطبرانى (١٩/ ٨٧ ـ ٩١)، والحديث بطوله فى مجمع الزوائد (٦/ ٤٢ ـ ٤٦)، وقال الهيثمى رواه أحمد والطبرانى بنحوه ورجال أحمد رجال الصحيح غير ابن إسحاق وقد صرح بالسماع، وقال الألبانى فى تحقيق فقه السيرة: وهذا سند صحيح وصححه ابن حبان كما فى الفتح (٧/ ٤٧٥) .

صحائف السفرة الكرام البررة، والقرآن النازل بمكة صور جزاء الآخرة رأى العين، فتوشك أن تمد يدك تقطف من أثمار الجنة، ويستطيع الأعرابى المتعشق للحق أن ينتقل فى لحظة فداء من رمضاء الجزيرة إلى أنهار النّعيم، والرحيق المختوم.

وحكى القرآن أخبار الأولين كيف أخلص المؤمنون فنجوا مع رسلهم، وكيف طغى الكفار وأسكرهم الإمهال فتَعَنّتوا وتجبروا، ثم حل العدل الإلهى، فذهب الظالمون بددًا، وتركوا وراءهم دنيا مُدبّرة ودورًا خربة.

فأدْبَرُوا ووُجُوهُ الأرْضِ تلْعَنُهُمْ ... كبَاطِلٍ مِن جَلالِ الحَقِّ مُنْهَزِمٌ

الإيمان بالله والحب فيه والأخوة على دينه والتناصر باسمه، ذلك كله كان يتدافع فى النفوس المجتمعة فى ظلام الليل بجوار مكة السادرة فى غيها، يتدافع ليعلن أن أنصار الله سوف يحمون رسوله كما يحمون أعراضهم ويمنعونه بأرواحهم، فلا يخلص إليه أذى وهم أحياء، إن مشركى مكة حسبوا أنهم حصروا الإسلام فى نطاق لا يعدوه، وأرهقوا المسلمين حتى شغلوهم بأنفسهم فناموا نومة المجرم الذى اقترف الإثم وأمن القصاص.

حَسَّنْتَ ظَنَّكَ بِالأيّامِ إذ حَسُنَتْ ... ولَمْ تَخَفْ سُوءَ ما يأتِي بِهِ القَدَرُ
وسَالَمَتْكَ الليالِي فاغْتَرَرْتَ بِها ... وعِنْدَ صَفْوِ الليالِي يَحْدُثُ الكَدَرُ

أجل ففى الليلة تحالف جند الحق أن يقسموا ظهر الوثنية، وأن ينتهوا بالجاهلية ورجالها إلى الفناء[١] .

٢ - لعل أصحاب الفكر المتسرع الذين يظنون أن الإسلام يمكن أن يمكّن

فقه السيرة (١٦١ - ١٦٣) باختصار.

بضربة خاطفة يعتبرون بما حدث فى هذه البيعة، وكيف أن الأنصار وهم أهل حرب ودراية، وقد عرضوا على رسول الله ﷺ أن يميلوا على أهل الوادى فيقتلونهم، فنهاهم ﷺ عن ذلك وقال: « **إنى لم أومر بذلك** »، فتعجل الثمار قد يضيع الجهد المبذول، ولا تؤتى الحركة الإسلامية ثمارها، وتكون النتيجة خسارة الأفراد الموجودين وضياع دعوتهم فى مقابل مصلحة متوهمة وهذا شاهد لقول النبى ﷺ لخباب : «**ولكنّكم تستعلجون**»[(١)] .

٣ ـ قال الأستاذ محمد سعيد رمضان :

يتجلى لدى التأمل فيما سردناه من كيفية بدء إسلام الأنصار، أن الله عز وجل قد مهد حياة المدينة وبيئتها لقبول الدعوة الإسلامية، وأنه كان فى صدور أهل المدينة تهيؤ نفسى لقبول هذا الدين.

لقد كان سكان المدينة المنورة خليطًا من سكانها الأصليين وهم العرب المشركون واليهود المهاجرين إليها من أطراف الجزيرة، وكان المشركون ينقسمون إلى قبيلتين كبيرتين: إحداهما الأوس، والثانية الخزرج ، وكان اليهود ثلاث قبائل : بنى قريظة وبنى النضير وبنى قينقاع، ولقد احتال اليهود طويلاً كعادتهم حتى زرعوا الضغائن بين قبيلتى الأوس والخزرج، فراح العرب يأكل بعضهم بعضاً فى حروب طاحنة متلاحقة.

وفى غمار هذه الخصومة الطويلة حالف الأوس بنى قريظة، وحالف الخزرج بنى النضير وبنى قينقاع، وكان آخر ما بينهم من المواقع موقعة بعاث، وذلك قبل الهجرة بسنوات قليلة، وكان يوماً عظيمًا مات فيه أكثر رؤسائهم، وفى أثناء ذلك كان كلما وقع شيء بين العرب واليهود، هدد اليهود فى أثناء ذلك بأن

---

(١) رواه البخارى.

نبياً قد آن أوان بعثته، وأنهم سيكونون من أتباعه ويقتلونهم معه قتل عادٍ وإرم .

فهذه الظروف جعلت لدى أهل المدينة تطلعًا إلى هذا الدين، وعلقت منهم آمالاً قوية به، عسى أن تتوحد بفضله صفوفهم ويعود فيلتئم شملهم، وتذوب وتمحي أسباب الشقاق مما بينهم، ولقد كان هذا مما صنعه الله لرسوله كما يقول ابن القيم في زاد المعاد حتى يمهد بذلك لهجرته إلى المدينة، حيث اقتضت رحمة الله أن تكون هي المنطلق للمد الإسلامي في أرجاء الأرض كلها[١] .

٤ ـ **قال ابن إسحاق** : وكان رسول الله ﷺ قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء، إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى والصفح عن الجاهل،وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون في دينه ومن بين معذب في أيديهم وبين هارب في البلاد فراراً منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة وفي كل وجه، فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذَّبوا نبيه ﷺ، وعذبوا ونفوا من عبده وحده وصدق نبيه واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل لرسوله ﷺ في القتل والانتصار ممن ظلمهم وبغي عليهم، فكانت أول آية أنزلت في إذنه له في الحرب وإحلاله له الدماء والقتال لمن بغى عليهم فيما بلغني عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء قول الله تبارك وتعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ

---

(١) فقه السيرة (١٢٦ ـ ١٢٧) باختصار .

يُذْكَرُ فيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٣٩ : ٤١]، أى إنما أحللت لهم القتال؛ لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، يعنى النبى ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين[(١)].

ثالثًا: صور من جهادها في الإسلام:

أ- يوم أحد:

كان لأم عُمارة فى يوم أحد شأن وأى شأن !

حتى تستيقظ أولئك الغافلات عن السير فى ميدان الدعوة والالتزام الحقيقى بالإسلام!

وحتى تترسم أولئك المجاهدات الفضليات من نساء المسلمين فى كل بقاع الأرض ـ وهن يجاهدن الشرك والإلحاد ـ الخطى الثابتة نحو مرضاة الله عز وجل وإعلاء كلمة لا إله إلا الله.

وحتى تنظر فتيات ونساء المسلمين اللائى يسرن وراء الشيطان، فليس لهن حظ من الدنيا إلا الدنيا، ومن الدين إلا اسمه!! عسى أن يفقن من غفلتهن ويتبن إلى الله تعالى، ويسرن فى طريق الهداية والصلاح.

خرجت أم عمارة إلى «أحُد» ومعها سقاءها تروى منه ظمأ المجاهدين فى سبيل الله، ومعها لفائفها لتضمد جراحهم.

---

(١) سيرة ابن هشام مع الروض الأنف (٢/ ٢١١).

عن سعيد بن زيد الأنصارى أن أم سعد بنت سعد بن الربيع كانت تقول:

دخلت على أم عمارة فقلت لها: يا خالة أخبرينى خبرك، فقالت: خرجت أول النهار، وأنا أنظر ما يصنع الناس، ومعى سقاء فيه ماء ، فانتهيت إلى رسول الله ﷺ وهو فى أصحابه، والدولة والريح للمسلمين، فلما انهزم المسلمون انحزت إلى رسول الله ﷺ فقمت أباشر القتال، وأذب عنه بالسيف، وأرمى عن القوس حتى خلصت الجراح إلىَّ.

قالت أم سعد: فرأيت على عاتقها جرحًا له غور، فقلتُ: مَنْ أصابك بهذا؟

قالت أم عمارة: ابن قمئة، أقمأه الله، لما ولّى الناس عن رسول الله ﷺ أقبل ابن قمئة يقول: دلونى على محمد، فلا نجوت إن نجا، فاعترضتُ له أنا ومصعب بن عمير، وأناس ممن ثبت مع رسول الله ﷺ فضربنى هذه الضربة، وضربته ضربات ولكن عدو الله كان عليه درعان.

وهكذا نرى أن نسيبة رضى الله عنها لم تتردد ولم تجبن، ولم تهرب، ولم تبرر، بل كان القرار الحاسم قرارًا شجاعًا واعيًا، وكان التنفيذ قويًا على مستوى الإيمان ومستوى الخطر المحدق بالإسلام.

إن اهتمام نسيبة بالإسلام وأمر الدعوة ، وإحساسها بمسؤوليتها فى حماية الدعوة والدفاع عن رسول الله ﷺ لم يكن بأقل من اهتمام الرجال من الصحابة الأجلاء، ولقد كان موقفها عظيمًا عندما ثبتت مع القلة القليلة من المؤمنين، وكان ثباتها كثبات الجبال.

وماذا تصنع امرأة فى ذلك الموقف أكثر مما صنعت أم عمارة آنذاك؟

بل ماذا يصنع رجل فى ذلك الموقف أكثر مما صنعت أم عمارة؟!

ألم يقتل ابن قمئة ـ المحاط بالسلاح والدروع ـ مصعب بن عمير الصحابى المجاهد، حامل الراية، الصابر المحتسب، والشهيد البطل؟

ألم ينفُذ هذا المجرم إلى مكان القيادة وهو يطاعن البقية الباقية من المسلمين، ويتلقى ضرباتهم بالترس والدرعين اللذين على جسده؟ فها هى نسيبة المجاهدة تتصدى له بقوة وثبات يضربها وتضربه، لا يستطيع أن يتقى ضرباتها، ولكن دروعه تمنعها من قتله، ويضربها على عاتقها ضربة شديدة، فيجرحها جرحاً عميقاً.

يالله! كيف واصلت القتال والجرح ينزف، وله غور حتى إنَّ الكفَّ لتغيب فيه من عمقه وشدته؟

وهكذا نجد أمر العقيدة حين يبلغ هذا التوجُّه الواعى، وهذه المواقف العظيمة حينما يعرو الإسلام ـ وهو شعلة هادئة ـ أفكار الناس وقلوبهم، ويدخل بقاع الدنيا كلَّها، ويصبح المسلمون حماة صادقين، وتتحول المواقف اليومية البسيطة أمثولة يحتذيها الناس فى كل مكان(١).

وانتهت معركة أحد وكانت أم عمارة من بين الجرحى من المسلمين بعد أن سقت العطشى، وداوت الجرحى، وشجعت المقاتلين، وأمدت بالمؤونة، وباشرت القتال حتى استحقت ثناء الرسول ﷺ عليها حين قال لابنها عبد الله بن زيد بن عاصم: « **بارك الله عليكم من أهل بيت، مقام أمك خير من مقام فلان وفلان** » فقالت أم عمارة: « ادع الله أن نرافقك فى الجنة »، فقال:

---

(١) «نسيبة بنت كعب المازنية» تأليف محمد حسن بريغش.

« اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة » قالت:«ما أبالى ما أصابنى من الدنيا»(١) .

وبعد أحد نرى أن أم عمارة ـ رضى الله عنها ـ لم تترك موطناً إلا حضرته مع رسول الله ﷺ، وكأنما أصبحت جزءاً من الدعوة، ترى أن الإسلام قضيتها الأولى، فتتحرك معها، وتتابع أحداثها، وتعى ما يدور حولها فترى ما يكيده أعداء الدعوة من مكائد، وما يعملون من مؤامرات»(٢) .

هكذا كان موقف أم عمارة نسية بنت كعب المازنية رضي الله عنها.

فنراها عندما اعترضت ابن قمئة مع أناس ممن ثبتوا مع رسول الله ﷺ فى المعركة فضربها الضربة، وضربته هى عدة ضربات، لم تهرب، ولم تخف، بل كانت شجاعة واعية لما تصنع، وكان الإصرار على ضرب ابن قمئة ومواصلة الجهاد فى المعركة على مستوي إيمانها الراسخ بالله تعالى وعلى مستوى الخطر المحدق بالإسلام.

فأين نساء اليوم من أم عمارة رضي الله عنها ؟ .

بل أين أخواتنا المسلمات اليوم من أم عمارة رضي الله عنها ؟ .

تحسب الواحدة منهن أنها ببعض ركعات تُصلى، وشهر يُصام، وحجاب يُرتدى، وبعض آيات تُتلى، أنها قد فهمت الإسلام، وأنها قد استقامت على الدين حقًا، فى الوقت الذى لا تزال بعض أفكارها، وبعض سلوكياتها، لم تُعجن بعد بالإسلام، ولم تصطبغ حقيقةً بالدينِ، حتى بات المظهر الخارجى جميلاً، والباطن لا يتناسق مع الظاهر، بل يظهر ويفتضح وقت الابتلاء والمحن.

لابد أن تعى المرأة المسلمة أن الدور المطلوب منها اليوم أكبر بكثير مما تظن.

---

(١) رواه ابن سعد فى طبقاته (٨/ ٤١٤، ٤١٥).

(٢) صور من سير الصحابيات لعبد الحميد السحيبانى (٧٣ : ٧٦)، صور من حياة الصحابيات (٦٦ : ٦٩).

فهناك نقص فى فهم الإسلام ككل! .

وهناك قصور فى الالتزام به كاملاً!.

وهناك ضعف فى العمل له والدعوة إليه!.

فنجد مثلاً قصوراً حاداً فى فهم «تربية الأولاد على الإسلام»، وآخر فى فهم (حقوق الزوجية) .

وقصوراً آخر فى فهم «معنى وآداب الزيارة فى الله » .

وقصوراً آخر فى فهم «معنى وكيفية الدعوة إلى الله » [(١)] .

فأني لهذا الجيل أن يكون من بينهن مثلاً واحدة مثل: «أم عمارة» .

إن بعض النماذج الطيبة الموجودة الآن لا تكفى، فالفساد والبعد عن الدين له اليد الطولي بين الناس وعليهم، فهلاً اغتنمت كل امرأة صالحة وقتها لإعادة ترتيب أوراقها،ثم تهب بعد ذلك هبَّة خالصة للهتعالى، لا تهدأ بعدها إلا بالموت.

وهكذا تمرّست أم عمارة يوم أحد على القتال، وذاقت حلاوة الجهاد فى سبيل الله تعالى، ولم يجعلها جرحها الغائر تجبن وتتردد، وتترك الرجال يخرجون إلى الجهاد دونها، بل حضرت مع رسول الله ﷺ أكثر المشاهد، فحضرت معه الحديبية، وخيبراً، وعمرة القضيّة، وحنيناً، وبيعة الرضوان، واليمامة.

ب ـ اليمامة وما أدراك ما يوم اليمامة ؟! :

(ولقد وقفت أم عمارة ﵂ أمام المصائب وقوف الصابرين المحتسبين، فعندما أرسل الرسول ﷺ ابنها حبيباً برسالة إلى مسيلمة الكذاب يدعوه فيها إلى

(١) إلي غير ذلك من جوانب القصور والتى سنفرد لها رسالة مستقلة إن شاء الله بعنوان: «وقفة مع الأخوات المسلمات» يسر الله كتابتها ونشرها ضمن سلسلة: «المرأة الصالحة» .

الإسلام ما كان من مسيلمة إلا أن قتله وقطّعه، وعند ذلك علمت نسيبة ـ أم عمارة ـ بجريمة مسيلمة وطغيانه، فاستقبلت الخبر بصبر وثبات، وعاهدت ربها أن تموت دون مسيلمة أو تقتله وتثأر لابنها الشهيد، وانتظرت مسيرة الجيش إلى اليمامة، فخرجت مع ابنها عبد الله فى جيش المسلمين بقيادة خالد ابن الوليد رضي الله عنه .

وهناك اشتد القتال، واستأسد مسيلمة وأعوانه بعدما انهزم أول جيش اصطدم به، ولكن الجيش الذى قاده خالد كان أكثر إصراراً على النصر واقتلاع شوكة الباطل.

واحتدم القتال وسقط الكثير من المسلمين شهداء، وارتفعت هتافات الإيمان: الله أكبر، واقتحم الصحابة من أهل بدر وأحد صفوف المرتدين، وشتتوا جموعهم، وهرب مسيلمة يلتمس النجاة مع الآلاف الباقية من جنده، والتجأ إلى بستان مسور، وأحكم إغلاق الباب.

وهناك كانت بطولاتٌ يقف أمامها التاريخ مشدوهاً، واقتحم المسلمون البستان بعد أن ألقوا بواحد منهم وراء الباب حتى فتحه، وكانت نسيبة تندفع مع الجموع الإسلامية إلى حديقة الموت، واستمر القتال.

كانت تبحث عن عدو الله، وكان دون ذلك جموع وأبطال أشداء، لكنها تدربت على اقتحام كتائب الأبطال، وعرفت موطن مسيلمة فاقتحمت الجموع حوله مع ابنها، ووصلوا إليه حتى أصابه ابنها عبد الله بضربة قاتلة، وقذفه وحشى بحربته الصائبة، فخر عدوُّ الله صريعًا ، وشفى الله صدرها، وانتقمت من عدو الله وعدوها.

وعادت نسيبة بعد أن شاركت فى هذه المعركة العظيمة، وانتقمت لموت

ابنها بعد أن أصيبت باثنى عشر جرحًا، وقطعت يدها ، وعادت إلى المدينة لتضميد جراحها)[١] .

ولما علم أبو بكر الصديق ﷺ بما أصاب نسيبة من قطع يدها وإصابتها من الجراح، كان يأتيها ليعودها ويسأل عنها ويشد من أزرها ويصبرها.

وهكذا يرفع الإسلام أهله، عندما يذهب خليفة المسلمين ليسأل عنها، فيضرب بذلك القدوة والمثل، وعندما يضع الخليفة مثل هذه القيم ويرسخها فى مجتمعه، ولم لا ، وأم عُمارة جديرة بكل ذلك، فهى صورة صادقة للتضحية والبذل والعطاء، ومثالاً رفيعاً للاحتذاء.

رابعًا : المرأة التي تعد الأبطال وتربي الرجال :

يظهر ذلك فى موقعة أحد عندما كان ابن أم عمارة يناضل عن رسول الله ﷺ فضربه أحد المشركين ضربة شديد، جعل الدم يتفجر منه.

ماذا فعلت أم عمارة حينها ؟!

لقد ضمدت جرحه الغائر وقالت له: « **انهض يا بُنى وجالد القوم** » .

لم تُخفِ ابنها عن أعين المشركين، ولم تسحبه خارج ميدان المعركة، وإنما ضمدت جرحه، وأمرته بمواصلة الجهاد ومضاربة المشركين بالسيف.

هكذا كانت تربى ابنها وتعده بطلاً مغواراً، ورجلاً تعتمد عليه الدعوة فى أحلك أوقاتها.

ويظهر لنا موقف آخر لها ﷺ، عندما رأي الرسول ﷺ جرح عاتقها يتصبب منه الدم فقال لابنها:

(١) صور من حياة الصحابيات (٧٣ : ٧٧) .

«أمسك أمَّك ، اعصب جرحها، بارك الله عليكم أهل بيت، لمقام أمَّك خير من مقام فلان وفلان، رحمكم الله أهل بيت».

وهل كانت تطمع أم عمارة فى أفضل من ذلك؟ نعم!

التقت رضي الله عنها برسول الله ﷺ وقالت له: ادع الله لنا أن نرافقك فى الجنة يا رسول الله ، فقال ﷺ: « **اللهم اجعلهم رفقائى فى الجنة** ».

فقالت بلسان المجاهدة الصابرة، الفرحة بهذه الدعوة الغالية: « **ما أبالى بعد ذلك ما أصابنى فى الدنيا** » .

هكذا يعمل الإيمان فى القلوب عندما يتمكن منها ويستقر.

هكذا تهون الدنيا كلها بزخارفها وزينتها وشهواتها وصراعاتها، عندما تكون عين المرأة على الجنة.

هكذا يكون البذل والعطاء من أجل هذه الدعوة المباركة، عندما تبيع المرأة الصالحة هذه الدنيا الفانية بدار باقية فى مقعد صدق عند مليك مقتدر.

يا نساء المسلمين . .

إن أم عمارة (لم تقتصر فى حياتها على تربية أبنائها على الحق والعدل، والجرأة والشجاعة، والثبات على المبدأ بعد الإيمان العميق بالله .

ولم تكن تقتصر على رعاية بيتها، والحفاظ على أسرتها، بل كانت فى بطولتها وشجاعتها وبلائها فى الحروب، نبراسًا لكل امرأة تقتدى بها وتهتدى بسيرتها .

إذ ليست النساء وعاءً لإنجاب الأطفال، ورعاية الأسرة وحمايتها فقط، بل

إن لهن دوراً آخر فى المواقف الصعبة، يجعل منهن للرجال أنداداً، بل إنهن أحياناً يأخذن دور الرجال، ويقمن بأعمالهم، وإن بدت للرائى أدواراً ما خلقت لها المرأة، لا سيما أنها تتمتع برقة لا توجد فى الرجال، وضعف فى القوة الجسدية، لا تصل لقوة الجسد فى الرجال.

ولكن فى الأيام العسيرة لم تعد المرأة وراء الرجال تعمل بصمت فى بيتها، وتبذر وتزرع مكارم الأخلاق فقط، بل إنها غدت إلى جانبهم، يداً بيد وكتفاً إلى كتف، وربما سبقت الرجل ونصبت نفسها تدافع عنه، وتقيل عثرته وتجعله يسير على قدميه يواصل مسيرته فى الحياة.

بعد ذلك تفسح له المجال ليتابع ويتابع. إنها فى الخطوط الأمامية من المعركة لا فى الخطوط الخلفية)[(١)] .

هل وعيت كل واحدة من نساء المسلمين طبيعة عملها فى هذه الدنيا، وطبيعة مستلزمات ارتباطها بالدين عقيدة وسلوكاً ودعوة؟!! .

وما هى هذه الجنة التى من أجلها يهون كل شيء؟! .

*عن جابر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : « **يأكل أهل الجنة فيها، ويشربون، ولا يتغوطون، ولا يمتخطون أو يبولون، ولكن طعامهم ذلك جشاءٌ كرشح المسك يلهمون التسبيح والتكبير، كما يلهمون النفس** »[(٢)] .

*وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **قال الله تعالى: « أعددت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر**

(١) نساء رائدات ، عفت وصال حمزة (١/ ٧٨)
(٢) أخرجه مسلم وغيره.

على قلب بشر، واقرءوا إن شئتم ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴾ »[1] [السجدة:١٧] .

* وعن أبي موسي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « إن للمؤمن في الجنة لخيمة من لؤلؤة واحدة مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً، للمؤمن فيها أهلون يطوف عليهم المؤمن ولا يرى بعضهم بعضاً »[2] .

* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: « إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المُضمَّر السريع مائة سنة لا يقطعها »[3] .

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « إن أدنى مقعد أحدكم من الجنة أن يقول له تمنَّ فيتمنَّى ويتمنَّى فيقول له: هل تمنيت؟ فيقول: نعم؟ فيقول له: فإن لك ما تمنيت ومثله معه »[4] .

* وعن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ فنظر إلى القمر ليلة البدر فقال: « إنكم سترون ربكم عياناً كما ترون هذا القمر، لا تُضامُون في رؤيته »[5] .

خامساً: فضل الصبر على فقد الأولاد :

* روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فتمسه النار إلاَّ تحلة القسم » ، ولفظ

---

(١) متفق عليه.
(٢) متفق عليه.
(٣) متفق عليه.
(٤) رواه مسلم.
(٥) متفق عليه.

مسلم: « من مات له ثلاثة لم يبلغوا الحنث لم تمسه النار إلاَّ تحلة القسم »[(١)].

قال النووى : تحلة القسم هو المرور على الصراط.

* وعند مسلم عن أبى هريرة ﷺ أن النبى ﷺ قال لامرأة مات لها ثلاثة من الولد قال لها : « لقد احتظرت بحظار شديد من النار »[(٢)].

ومعني احتظرت بحظار شديد من النار: أى احتميت بحمي عظيم منها.

* وعن أبى هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « يقول الله عز وجل: ما لعبدى المؤمن جزاءً إذا قبضت صفيه من أهل الدنيا ثم احتسبه إلاَّ الجنة »[(٣)].

ومعني **صفيه**: حبيبه.

* وعن أبى سعيد الخدرى ﷺ: «إن النساء طلبن يومًا لهن يجلسن فيه إلى رسول الله ﷺ ليعظهن ويذكرهن؟ فاجتمعن فى يوم ودار حددا لهن، فوعظهن رسول الله ﷺ وقال: « ما منكن امرأة يموت لها ثلاثة من الولد إلا كانوا لها حجابًا من النار ». فقالت امرأة: واثنين؟ فإنه قد مات لى اثنان، فقال رسول الله ﷺ : « واثنان »[(٤)].

* وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ : « صغارهم دعاميص أهل الجنة، يتلقى أحدهم أباه فيأخذ بصنفة ثوبه (أى بطرفه) فلا يفارقه حتى

---

(١) البخارى (١٢٥١)، ومسلم (٢٦٣٢).
(٢) مسلم (٢٦٣٦).
(٣) البخارى (٦٤٢٤).
(٤) رواه البخارى (١٠١)، ومسلم (٢٦٣٣).

يدخله الجنة »، وفي لفظ: «صغارهم دعاميص الجنة، يتلقي أحدهم أباه ـ أو قال: أبويه ـ فيأخذه بثوبه ـ أو قال: بيده ـ كما آخذ أنا بصنفة ثوبك هذا؟ فلا يتناهي ـ أو قال ـ فلا ينتهى حتى يدخله الله وإياه الجنة»(١).

(ودعاميص) مفردها دعموص وهو الذى لا يمنع من دخوله فى أى مكان فإنهم يسيحون فى الجنة ولا يمنعون من مكان منها.

* وعن عتبة بن عبد السلمى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «ما من مسلم يتوفي له ثلاثة من الولد لم يبلغوا الحنث إلا تلقوه من أبواب الجنة الثمانية من أيها شاء دخل»(٢).

* وعن أنس بن مالك، عن النبى ﷺ قال: « ما من مسلمين يُتوفَّى لهما ثلاثة من الولد، لم يبلغوا الحِنْث، إلاَّ أدخلهم الله الجنة بفضل رحمة الله إياهم »(٣).

(١) رواه مسلم (٢٦٣٥)، وأحمد (٥/ ٥١٠) انظر: السلسلة الصحيحة برقم (٤٣١).
(٢) حديث حسن رواه أحمد (٤/ ١٨٣، ١٨٤)، وابن ماجة (١٦٠٤)، وحسنه الألبانى فى صحيح سنن ابن ماجة (١/ ٢٦٨) برقم (١٣٠٣).
(٣) رواه ابن ماجة، وصححه الألبانى فى صحيح سنن ابن ماجة برقم (١٣٠٤).

موقف أم حبيبة من زوجها عندما ارتد

موقف أم حبيبة من زوجها عندما ارتد

قال المؤرخون:

« أم حبيبة آثرت الله ورسوله على ما سواهما ، وكرهت أن تعود للكفر كما يكره المرء أن يقذف فى النار؟ » .

﴿ الدروس والعبر ﴾

أولاً : من هي أم حبيبة ؟

هى رملة بنت أبى سفيان صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس الأموية زوج النبى صلي الله عليه وآله وسلم، تكنى أم حبيبة وهى بها أشهر من اسمها، وقيل اسمها هند ، ورملة أصح، أمها صفية بنت أبى العاص بن أمية.

ولدت قبل العقبة بسبعة عشر عاماً، تزوجها حليفهم عُبيد الله ـ بالتصغير ـ ابن جحش بن دياب بن يعمر الأسدى من بنى أسد بن خزيمة، فأسلما ثم هاجر إلى الحبشة، فولدت له حبيبة، فبها كانت تكنى، وقيل إنما ولدتها بمكة وهاجرت وهى حامل بها إلى الحبشة، وقيل ولدتها بالحبشة.

وتزوج حبيبة داود بن عروة بن مسعود ، ولما تنصر زوجها عبد الله بن جحش وارتد عن الإسلام فارقها.

وماتت بالمدينة سنة أربع وأربعين جزم بذلك ابن سعد وأبو عبيد، وقال ابن حبان وابن قانع سنة اثنتين، وقال ابن أبى خيثمة سنة تسع وخمسين وهو بعيد والله أعلم[1] .

ثانيًا : إسلامها وخروجها علي أهلها ومجتمعها :

كان أبو سفيان بن حرب سيد مكة المطاع وزعيمها القوى الذى يدين له الناس بالولاء، ومع ذلك خرجت ابنته رملة وزوجها عبيد الله بن جحش عليه

(١) الإصابة (٤/ ٣٠٥).

وعلى المجتمع حين كفروا بالآلهة الباطلة وآمنوا برسالة محمد ﷺ[١].

ما كان يدور بخلده أن يخرج أحدٌ عليه، فإن كان الخارج هو ابنته وزوجها، فبأى وجه سيقابل قريش وهو الزعيم المهاب بينهم ؟!

لقد حاول بكل ما أوتى من قوة وبأس أن يرد ابنته وزوجها عن هذا الدين الجديد، ليعودوا مرة أخري فى كنف دينه ودين آبائه الباطل.

ولكن هيهات هيهات! ماذا تفعل الدنيا كلها إذا رسخ الإيمان فى قلب صاحبه؟!

ولم يقف أبو سفيان وحده فى ميدان المعركة بين الحق والباطل ، بل دخلت قريش معه حلبة الاجتراء على أم حبيبة وزوجها ، وأخذت قريش تضيق عليهما الخناق وتؤذيهما حتى باتا لا يطيقان الحياة فى مكة.

لذا كانا فى طليعة المهاجرين بدينهم إلى الحبشة لَمّا أذن رسول الله ﷺ للمسلمين بالجهرة إليها.

« لكن أبا سفيان بن حرب ومن معه من زعماء قريش أعزَّ عليهم من أن يفلت من أيديهم أولئك النفر من المسلمين! وأن يذوقوا طعم الراحة فى بلاد الحبشة، فأرسلوا رسلهم إلى النجاشى يحرضونه عليهم ويطلبون منه أن يسلمهم إليهم، ويذكرون له أنهم يقولون فى المسيح وأمه مريم قولاً يسوؤه.

فبعث النجاشى إلى زعماء المهاجرين، وسألهم عن حقيقة دينهم، وعمّ يقولونه فى عيسى بن مريم وأمه، وطلب إليهم أن يسمعوه شيئاً من القرآن الذى ينزل على قلب نبيهم.

---

(١) أين المرأة المسلمة اليوم من ذلك؟ حين تؤذى فى دينها والتزامها بالسخرية والاستهزاء من أقرب الناس إليها، فما تلبث إلا وتضعف، ثم تترك طريق الهدى وتعود مرة أخرى إلى ما كانت عليه من التفريط فى الدين والبعد عنه.

فلما أخبروه بحقيقة الإسلام، وتلَوْا عليه بعضًا من آيات القرآن، بكى حتى اخضلّت لحيته، وقال لهم:

« إن هذا الذى أنزل على نبيكم محمد، والذى جاء به عيسى بن مريم يخرجان من مشكاة واحدة » .

ثم أعلن إيمانه بالله وحده لا شريك له وتصديقه لنبوّة محمد صلوات الله وسلامه عليه.

كما أعلن حمايته لمن هاجر إلى أرضه من المسلمين مع الرغم من أن بطارقته أبوْا أن يُسْلموا، وظلوا على نصرانيتهم)[1] .

وصدق الله تعالى حين يقول: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]

فقد اجتمع أهل الشرك متمثلين فى أبى سفيان وزعماء قريش على مواصلة التضييق على الفئة المؤمنة التى رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً، ولكنهم لا يدرون بتدبير الله عز وجل الذى لا يتخلى عن نصرة عباده المؤمنين.

كذلك يجب أن تكون كل مسلمة مؤمنة بالله الإيمان الصادق الذى يحملها على تمام التوكل على الله عز وجل، حتى يرزقها الله عز وجل النصر والتمكين والثبات على الدين.

ثالثًا : ابتلاء الزوجة المؤمنة بزوجها :

رأت أم حبيبة فى منامها أن زوجها عُبيد الله بن جحش يتخبط فى بحر

---

(١) صور من حياة الصحابيات (ص ٨١ ـ ٨٢) **البطارقة** : جمع بطريق وهو القائد.

لجيٍّ، غشيته ظلمات بعضها فوق بعض، وهو بأسوأ حال.

وما لبثت رؤياها أن تحققت، حتى وجدت زوجها قد ارتد عن دينه وتنصر!

ابتلاء شديد وخطب جليل جاءها بعدما ظنت أنها فى الجنة مع زوجها قد صفا لها الحال بعد طول شدة، وأنه قد آن لها أن تستريح من عذاب أبيها لها، وكذلك قريش بسبب إسلامها.

ولكنه الطريق إلى الله تعالى، ابتلاء تلو ابتلاء، وامتحان بعد امتحان، حتى يمحص الله الصادقين من الكاذبين.

ومع ذلك فهى لم تهن، ولم تجزع وظهر ذلك فى أعلى صورة لَمَّا خيرها بين أمرين. فإمَّا أن تطلق، وإمَّا أن تتنصر!!

ماذا تفعل أم حبيبة إذن وهى وحدها فى مجتمع جديد، وشوكة المسلمين لا تزال ضعيفة، وزوجها قد انتكس انتكاسة خطيرة؟!

وجدت نفسها فجأة بين ثلاثة أمور:

الأول: أن تتنصر مع زوجها وتقبل دعوته لها بالدخول فى النصرانية، وبذلك ترتد عن دينها.

والثاني: أن تعود إلى أبيها وعشريتها وهم لا يزالون يعيشون فى شركهم، لتقاسى العذاب والهوان من أجل ثباتها على دينها.

والثالث : أن تبقى فى بلاد الحبشة وحيدة بلا أهل ولا ناصر. اختيارات صعبة، وابتلاء شديد، يحث نساء المسلمين اليوم أن يستحين من الله تعالى عندما تسقط الواحدة منهن فى طريق الانتكاسة والضلال بعد الهدى بسبب

دنيا زائلة، أو متاع زائف، أو ابتلاء لا يوازى أى ابتلاء ارتوت من كأسه أم حبيبة وغيرها من نساء سلف هذه الأمة.

لقد آثرت أم حبيبة رضا الله عز وجل على ما سواه.

لقد عزمت على البقاء فى الحبشة وتحمل هذه الغربة الشديدة ـ وهى امرأة ـ على ما عداه من الأمرين الآخرين حتى يأتى الله بنصر من عنده، آثرت أن تعمل من أجل دينها وجنة ربها.

فأين أخواتنا المسلمات اليوم من مثل هذه السيدة الجليلة؟!!

لا تتحمل الواحدة منهن أدنى ابتلاء بسبب إصرار أهلها مثلاً على خلعها للحجاب، أو عدم التزامها بالدين، فتنتكس وتضل بعد الهدى، أو تبقى على الحد الأدني وهو ظاهر التدين دون حقيقته، وتقنع بذلك وتظن أنها قد أحسنت صنعاً.

رابعًا: الفرج بعد الشدة:

لا تظن المسلمة الديّنة أنها تقف وحدها فى ميدان الاستقامة على الدين!

لا تظن أن عين الله تعالى عنها غائبة!

لا تظن أبداً أن مرارة الابتلاء والشدة ستبقى طويلاً دون فرج ونصر من الله، ولكنكم قوم تستعجلون!

لابد من بزوغ الفجر بعد طول الظلام، وما النصر إلا من عند الله تعالى.

لم يطل ابتلاء أم حبيبة طويلاً حتى جاءها الفرج، وحتى داعبتها أجنحة السعادة بما لا تتوقع أبداً.

ففى ذات يوم فوجئت أن النجاشى يرسل إليها مع وصيفته «أبرهة» ، بأن النبى ﷺ قد خطبها لنفسه، وأنه قد بعث للنجاشى كتاباً وكلَّه فيه بأن يعقد له عليها، فلتوكل عنها من تشاء!!

هل كانت أم حبيبة تتوقع فرجاً بهذه الصورة؟!

أقصى ما كانت تتمناه، أن يرزقها الله عز وجل بزوج مسلم صالح يكفيها مؤنة الغربة، وفقدان الأهل، والوطن، ويثبتها على دينها، ويعينها على طاعة الله تعالى.

لكن أن يكون هذا الزوج هو رسول الله ﷺ، فهذا ما لم تكن تتوقعه، وما لم يتوقعه أحدٌ ممن يقرأ سيرتها.

بالطبع استطارت أم حبيبة فرحاً غير عادى، لدرجة أنها خلعت ما عليها من حُلى وأعطته لأبرهة فى تلك اللحظة، فهى لا تكاد تصدق نفسها، ولا تتخيل ماذا يحدث الأن؟!

وبالفعل وكلت عنها خالد بن سعيد بن العاص، وعقد عليها فى قاعة فسيحة مزدانة بقصر النجاشى حضره الصحابة المقيمون فى الحبشة وقتها.

(فلما اكتمل الجمع، تصدَّر النجاشى المجلس وخطبهم فقال:

أحمد الله القدوس المؤمن العزيز الجبار، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وهو الذى بشّر به عيسى بن مريم، أما بعد:

فإن رسول الله ﷺ طلب منى أن أزوجه أم حبيبة بنت أبى سفيان، فأجبته إلى ما طلب، وأمهرتها نيابة عنه أربعمائة دينار ذهباً على سنة الله ورسوله.

ثم سكب الدنانير بين يدى خالد بن سعيد بن العاص.

وهنا قام خالد فقال: الحمد لله أحمده وأستعينه، وأستغفره وأتوب إليه، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله بدين الهدى والحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون؛ أما بعد :

فقد أجبت طلب رسول الله ﷺ ، وزوّجته موكلتى أم حبيبة بنت أبى سفيان، فبارك الله لرسوله بزوجته، وهنيئًا لأم حبيبة بما كتب الله لها من الخير.

ثم حمل المال وهمّ أن يمضى به إليها، فقام أصحابه لقيامه وهمّوا بالانصراف أيضاً.

فقال لهم النجاشى: اجلسوا فإن سنة الأنبياء إذا تزوجوا أن يطعموا طعامًا، ودعا لهم بطعام فأكل القوم ثم انفضوا)[١] .

وهكذا كان الفرج بعد الشدة والبؤس والامتحان من الله تعالى، ولقد أخبر الله تعالى فى أكثر من موضع فى كتابه المبارك ما يدل على ذلك فمنها:

قوله تعالى: ﴿ فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ﴾ [الشرح: ٥، ٦].

وقوله تعالى: ﴿ سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴾ [الطلاق: ٧].

وكذلك فى سنة النبى ﷺ من الأحاديث التى تدل على ذلك أيضاً ومنها:

حديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: كنت خلف النبى ﷺ يومًا فقال لى: « يا غلام إنى أعلمك كلمات.. وفيه: واعلم أن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسراً »[٢] .

---

(١) المصدر السابق (ص ٨٩ ـ ٩٠).
(٢) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح ووافقه الألبانى.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « من نزلت به فاقة فأنزلها بالناس، لم تسد فاقته، ومن نزلت به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له برزق عاجل أو آجل »(١).

وقال الشافعي رحمه الله:

وَلَرُبَّ نازلة يضيق لها الفتى ... ذرعًا وعند الله منها المخرجُ
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها ... فُرجت وكنت أظنها لا تُفْرجُ

*** ولنا في قصص الأنبياء وما تعرضوا له من محن وبلاء أعقبها الله بالفرج والرفعة العبرة والعظة:**

قال تعالى عن نوح عليه السلام: ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ (٧٥) وَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ (٧٧) ﴾ [الصافات: ٧٥: ٧٧].

وقال تعالى عن أيوب عليه السلام: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِن ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَذِكْرَىٰ لِلْعَابِدِينَ ﴾ [الأنبياء: ٨٣، ٨٤].

---

(١) رواه الترمذي، وقال الألباني: صحيح (صحيح الجامع ٦٤٤٢).

فصل

الأسباب التي يرجى بها تعجل الفرج بعد الشدة

وهي ما ينبغي أن نشغل به أنفسنا ونجتهد في القيام به، فإنه بيت القصيد، وأهمها:

١ ـ تقوي الله تعالي :

وهو الالتزام بأوامر الله تعالى، واجتناب نواهيه بجد وإخلاص ظاهراً وباطناً قال تعالى: ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ [الطلاق: ٢، ٣].

٢ ـ التعرف إلي الله في الرخاء :

وهو ميل القلب إلى الله عز وجل، والانقطاع إليه، والاستجابة، والطمأنينة بذكره، والحياء منه، والهيبة له، وفي الحديث: « **تعرف إلى الله فى الرخاء يعرفك فى الشدة** »(١).

قال رجل لأبي الدرداء: أوصني. فقال: اذكر الله فى السراء، يذكرك الله فى الضراء.

٣ ـ الدعاء مع الاضطرار :

وذلك لقوله تعالى: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ ﴾ [النمل: ٦٢].

فلمن يلجأ المضطر إلا لله، ومن يكشف السوء عن المضرورين سواه؛ فمن

---

(١) رواه الترمذى وقال: حديث حسن صحيح ووافقه الألبانى.

أحوجه ضرٌّ من مرض، أو فقر أو نازلة من نوازل الدهر، فليس له من ملجأ إلا إليه، يتضرع إليه ويدعوه حتى يكشف عنه السوء بحكمته ورحمته.

٤ ـ كثرة الاستغفار وكثرة الاستغاثة بالله عز وجل :

ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا﴾ [نوح: ١٠ : ١٢].

وكان رسول الله ﷺ إذا نزل به غم أو هم قال:

« يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث »(١).

وعن أسماء بنت عميس قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « من أصابه هم أو غم فقال: الله ربى لا شريك له كشف ذلك عنه »(٢).

٥ ـ التوسل إلي الله عز وجل بالعمل الصالح :

ومن ذلك ما تضمنته قصة أصحاب الغار الذين انفرجت عنهم الصخرة شيئاً فشيئاً ، فقد توسل كل واحد منهم إلى الله عز وجل بصالح عمله .

فتوسل الأول ببره لوالديه، وتوسل الثانى بعفته من الزنا، وتوسل الثالث بحفاظه على حق أجيره.

قال الألبانى: «دعا هؤلاء الثلاثة ربهم سبحانه بهذه الأعمال الصالحة أىّ صلاح والمواقف الكريمة أى كرم، معلنين أنهم إنما فعلوها ابتغاء رضوان الله تعالى وحده، لم يريدوا بها دنيا قريبة، أو مصلحة عاجلة، أو جاهاً أو مالاً، ورجوا

(١) رواه الترمذى، و حسنه الألبانى (صحيح الجامع ٤٦٥٣).

(٢) رواه الطبرانى ، و حسنه الألبانى (صحيح الجامع ٥٩١٦.

الله جل شأنه أن يفرج عنهم ضائقتهم، ويخلصهم من محنتهم، فاستجاب سبحانه دعاءهم، وكشف كربهم، وكان عند حسن ظنهم به، فخرق لهم العادات وأكرمهم بتلك الكرامة الظاهرة، فأزاح الصخرة بالتدريج على مراحل ثلاثة»[(١)].

٦ ـ التوكل علي الله :

وهو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل فى استجلاب المصالح، ودفع المضار فى أمور الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ﴾[الزمر: ٣٦]، وقال تعالى أيضًا: ﴿ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾[الأحزاب: ٣].

ومن تمام التوكل على الله عز وجل اليأس من المخلوقين واعتقاد أنهم لا يملكون له ضراً ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً، ولا نشوراً، بل هم أقل وأذل من ذلك، ولله عز وجل وحده الخلق والأمر.

٧ ـ حسن الظن بالله عز وجل :

قال بعض الصالحين: استعمل فى كل بلية تطرقك حسن الظن بالله عز وجل، فإن ذلك أقرب إلى الفرج.

والشاهد عليه قوله ﷺ فيما يرويه عن ربه عز وجل: « **أنا عند ظن عبدى بى** »[(٢)] فمن ظن بالله عز وجل أنه يفرج عنه كربه، وييسر له أمره، فالله عز وجل عند ظن عبده به، لذا كان اليأس من رحمة الله كفرًا، لأنه ظنّ أن الله لن يرحمه، فكان هذا الظن خروجًا من رحمة الله[(٣)].

---

(١) التوسل أنواعه وأحكامه.

(٢) رواه البخارى ومسلم.

(٣) انظر: الفرج بعد الشدة للتنوخى.

خامسًا: الضرة صاحبة القلب النقي:

لما حضرت أم حبيبة الوفاة دعت عائشة زوج النبى ﷺ فقالت: قد يكون بيننا ما بين الضرائر فغفر الله لى ولك ما كان من ذلك. فقالت عائشة: غفر الله لك ذلك كله وتجاوز، وحلَّك من ذلك.

فقالت أم حبيبة: سررتنى سرَّك الله.

وأرسلت إلى أم سلمة فقالت لها: مثل ذلك.

سبحان الله ! إن سلامة الصدر مطلب عظيم، والحرص عليه واجب.

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قيل يا رسول الله؛ أى الناس أفضل: قال: «كل مخموم القلب صدوق اللسان». قالوا: صدوق اللسان نعرفه، فما مخموم القلب؟ قال: «هو التقى النقى، لا إثم فيه ولا بغى ولا غل ولا حسد» (١).

فما أحوجنا فى مثل هذه الأزمنة إلى هذا النقاء، وما أحوج المرأة المسلمة التى تزوج عليها زوجها إلى نقاء صدرها وسلامته، وما أحوج الزوجة الثانية هى الأخرى إلى الصدر السليم النقى.

ما أحوجنا جميعًا إلى نقاء الصدور وسلامتها فى وقت زادت فيه الفرقة والخلاف والنزاع، فامتلأت الصدور غلاً، وأوغرت الصدور، حتى كدنا لا نسمع إلاَّ كلمات التنقص والازدراء، وسوء الظن، والدخول فى النيات والمقاصد.

ولو أننا أردنا تتبع سير الأوائل لنقف على صفات وسلوك هؤلاء الأنقياء،

---

(١) رواه ابن ماجة ، وقال البوصيرى فى الزوائد: إسناده صحيح ورجاله ثقات ، وصححه الألبانى، الصحيحة (٩٤٨). (صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٤١١) برقم ٣٣٩٧.

لوجدنا العجب العجاب.

*فمن صفاتهم أنهم كانوا حريصين كل الحرص على تصفية قلوبهم من الغل والحسد والحقد.

*هم لا يعرفون الانتقام والتشفى، ويتجاوزون عن الهفوات، والأخطاء.

*وهم أصحاب القلوب السليمة ، والصدور النقية.

*يحبون العفو والصفح وإن كان الحق معهم.

*ألسنتهم نظيفة فلا يسبُون ولا يشتمون.

*صفاء فى السريرة ونقاء فى السيرة.

*دعاؤهم: اللهم قنا شح أنفسنا، واسلل سخيمة صدورنا.

(١) أى أخرج الحقد من صدرى.

فصل

السبيل إلى نقاء الصدور وسلامتها[1]

١ ـ الدعاء بصدق وإلحاح أن يرزقك الله قلبًا سليمًا :

فقد كان من دعائه ﷺ: «... واسلل سخيمة صدرى»[2].

ولنردد جميعًا دائمًا: ﴿ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠].

وقد كان من دعائه ﷺ أيضًا: « اللهم إنى أسألك قلبًا سليمًا » .

٢ ـ مجاهدة القلب ومراقبته :

فإن تنقية القلب من الغل والحقد يحتاج إلى ترويض نفس وطول مجاهدة ومراقبة، فإذا ما وجدت المسلمة فى قلبها شيئًا من ذلك على أختها المسلمة، فلتبحث عن الأسباب ولتصارح نفسها ولا تستجيب لداعى الهوى فيها، ولتسأل الله تعالى العون فى ذلك.

٣ ـ حسن الظن :

وهو من أسباب بقاء الألفة وسلامة الصدر، ومن ثمَّ نهانا الله عز وجل عن سوء الظن فقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ [الحجرات: ١٢].

فمن حق المسلمة على المسلمة أن تحسن بها الظن دائمًا، ويكون ذلك هو الأصل عندها، حتى لا تدع لأحد من شياطين الإنس أو الجن فرصة كى

---

(١) أنصح بالاستماع إلى محاضرة مسجلة للشيخ محمد المنجد حفظه الله بعنوان: « تطهير النفوس من الأحقاد »، وأخرى للشيخ إبراهيم الدويش حفظه الله بعنوان: «الأنقياء»، فإن نفعهما عظيم إن شاء الله تعالى، لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

(٢) أى خرج الحقد من صدرى .

يفسد العلاقة بينهما.

قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب الزلات.

واعلمي أيتها المسلمة أن سوء الظن يدعو إلى التجسس المنهى عنه، ويدعو إلى الوقوع فى قالة السوء فى أختك المسلمة، وما أبعدها عن المودة والرحمة من إذا غضبت غضبة من أختها أو رأت منها أمراً محتملاً لوجوه كثيرة ظنت بها السوء أو قالت فيها السوء.

٤ ـ الصبر والتحمل :

فإن الاحتمال مقبرة المتاعب، ولا يوجد أحدٌ بلا عيوب ، ولذا قال الشاعر:

لا يُزهدنك فى أخٍ لك أن تراه زلّ زلّة
ما من أخٍ لا يُعاب ولو حرصت الحرص كله

فاجعلى شعارك دائمًا: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: ١٨].

٥ ـ العفو والصفح :

قال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠].

وعن عليّ رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥]: الرضى بغير عتاب.

قال الماوردى: من حق الإخوان أن تغفر هفوتهم، وتستر زلتهم؛ لأن من رام بريئاً من الهفوات، سليماً من الزلات، رام أمراً مُعوِزاً واقترح وصفاً معجزاً.

وحكى الأصمعى عن بعض الأعراب أنه قال: تناسى مساوئ الإخوان يدم لك ودهم.

وقال الشاعر:

وصِلِ الكرام إذا رمَوْك بجفوةٍ فالصفح عنهم والتجاوز أصوب

فصل

مواقف مشرفة بين ضرتين

ولعل في النماذج الواقعية العملية سبيل كل مسلمة إلى التأسي والاقتداء بغيرها.

وإن كانت هناك صور قاتمة أو نماذج سيئة في قضية التعدد بين النساء، إلاَّ أن الإسلام يعلو فوق كل شيء وسيعلو حتى قيام الساعة باعتزاز أهله به.

وهذه بعض النماذج المضيئة والتي تعطينا الأمل دائماً في غدٍ مشرقٍ وأفضل.

١ - ذكرت جريدة الأخبار القاهرية في عددها الصادر بتاريخ ٢٢/ ١٢/ ١٤١٧ هـ الموافق ٢٩/ ٤/ ١٩٩٧م. خبراً بعنوان: «قرعة بين ضرتين» هذا نصه:

اضطر مسئولون سعوديون لإجراء قرعة بين زوجتين لأحد المرضي بالفشل الكلوى بعد أن أصرت كل منهما على التبرع له بإحدي كليتيهما، وذكرت صحيفة «عرب نيوز» السعودية التى تصدر بالإنكليزية أن السباق بين الزوجتين كان محمومًا، وأنه على الرغم من فوز الزوجة الثانية بالقرعة إلاَّ أن الزوجة الأولى أصرت على أنها هى صاحبة الحق فى التبرع لزوجها بالكلية.

٢ - أرسلت الزوجة الأولى للزوجة الثانية بطاقة تهنئة ليلة بناء زوجها بها قالت لها فيها:

أختي الحبيبة/...

سلامِ الله عليك ورحمته وبركاته.

لا يسعنى فى هذه المناسبة السعيدة إلاَّ أن أقول لك دعاء النبى ﷺ:

« **بارك الله لك، وبارك عليك وجمع بينكما فى خير** »

وأدعو الله عز وجل أن يكتب لك السعادة والهناء والتوفيق فى حياتك الزوجية الجديدة، كما أدعوه سبحانه أن نظل أختين متحابتين فى الله، متعاونتين على طاعته، حتى نضرب المثل الأعلى ، والقدوة الصالحة لأخواتنا المسلمات المرعوبات من تعدد الزوجات.

واعلمى يا (...) أنى قد رشحتك زوجة لشيخنا الفاضل ـ حفظه الله ـ لما لمسته فيك من صفات حميدة وأخلاق عالية والتزام طيب ـ ولا أزكى على الله أحداً ـ وأنك سوف تكونين له نعم الزوجة التى تتفانى فى خدمة زوجها وإسعاده، وسوف تجدينه ـ إن شاء الله ـ نعم الزوج لك ، فلنحافظ سوياً على هذه النعمة التى منّ الله علينا بها، ونشكره دائماً عليها.

وأسأل الله أن يجمعنا دائماً على خير، وأن يوفقنا لما يحبه ويرضاه.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

أختك أم (.......)

٣ ـ عندما علمت الزوجة الثانية ـ المعقود عليها ـ بمشاكل زوجها مع زوجته الأولي قالت له بكل العزة والإيثار: الأَوْلى أن تطلقنى وتُبقى على زوجتك الأولى ذات الأولاد الستة، ما دامت قد خيرتك بينى وبينها.

٤ ـ الزوجة الأولى تدعو الله عز وجل وتتضرع إليه فتقول:

ـ اللهم اكتب لزوجى السعادة مع زوجتيه الأولى والثانية، واكتب له السعادة فى الدارين الأولى والآخرة.

ـ اللهم انزع من قلبى الغيرة، واملأ قلبى بالحب وحب الخير لزوجى ولزوجته الثانية.

٥ - تقول غالية الجحدرى: أقول وبالله التوفيق : إننى الزوجة الثانية لزوجى ولقد والله خطبت لزوجى المرأة الثالثة برضيٍ من نفسى ولا أدّعى أن الأمر عادى، بل إن الغيرة ما زالت موجودة، إلا أنه استشعار لهذا الخطر الداهم وإيمان منى بأن المصلحة كل المصلحة فيما اختاره الله لنا، وأنا مستعدة لإثبات ذلك ولقد رفضت هذه المرأة الثالثة للأسف الموافقة.

وهأنذا أقول من أرادت أن تتأكد من كلامى وهى امرأة صالحة فبإمكانى أن أخطبها له شريطة أن يوافق هو على شخصيتها(١).

٦ - إلتقت جريدة «الصباحية» بالعروسين روضة وهنية وتحدثتا معًا عن حياتهما الجديدة قالتا:

إن الصداقة تربط بينهما وإنهما يخرجان معًا للتسوق، وينامان معًا فى غرفة واحدة بعد أن التحق عريسهما المشترك (أمين) بالقوات المسلحة.

وبعد مضى أكثر من إسبوعين على هذا الزواج التقت (الصباحية) بوالد العريس حيث يقيم (العرسان الجدد) وأبلغا والد العريس (الصباحية) أن العريس ذهب بعد مضى أربعة عشر يومًا على زفافه والتحق بالخدمة الإلزامية بالجيش حيث ما زال أمامه أربعة عشر شهرًا لإتمامها، وقد بدت روضة وهنية (العروسان) والموجودتان فى بيت والد الزوج كأختين أكثر منهما (ضرتين)، ويظهر أن هناك علاقة حب وتفاهم بينهما ولا يوجد حتى أى نوع من الجفاء بل كانتا متفاهمتين بحماسة وكل منهما تستشير الأخرى قبل أى إجابة على أسئلة (الصباحية).

تقول هنية: إن زواجها من أمين أُجل ليلة واحدة وأنها أمضت تلك الليلة

(١) نعم تعدد الزوجات نعمة (ص ٤١) .

في بيت والدها.

سألناها كيف تقرر أن تكون هي الثانية؟

وأجابت ببساطة أنه حسب ترتيب كتب الكتاب فقد تقرر حينئذٍ أنها الزوجة الثانية، بينما تكون (روضة) الزوجة الأولى بالرغم أن عقد القران للاثنتين تم في نفس اللحظة.

وتقول روضة: نحن حقًا صديقتان، ونستغرب لدهشة الناس من ذلك ففي الأمس عندما غادرنا أمين إلى خدمته في الجيش بتنا ـ أنا وهنية ـ في غرفة واحدة، وذهبنا بعد الظهر للتسوق معاً.

كما أننا خلال الأسبوع الماضي خرجنا مع أمين للتنزه معاً؛ والآن هو غير موجود بيننا ومع ذلك فنحن لا نفترق فنحن صديقتان وبنتًا عمومة قبل أن نكون زوجتي أمين.

وتقول روضة إن أهم شيء هو العدل، وأمين يعدل بيننا تمامًا، فلكل منا غرفة مستقلة في البيت، ومهرنا وتكاليف زوازجنا أنا وهنية كانت متساوية تماماً **وما دام الزوج عادلاً، فلا يوجد أي داعٍ لأية خلافات أو مشكلات**[1].

٧ - لا تشعر الأخت (أم حسان) بأية غيرة من ضرتها، وتعتبرها أختها، وتنظر إليها نظرة احترام وتقدير.. كيف وهي التي اختارتها زوجة لزوجها بعد عدة سنوات من الزواج وعدم الإنجاب، ولكن إرادة الله فوق كل شيء، فقد حصل الحمل للزوجتين في أوقات متقاربة، **وكأنه بركة التعدد وتعظيم شريعة الله تعالى هي التي جاءت بالخير، ولم لا والله تعالى يعطي عباده المتقين ما يحبون.**

---

(١) فضل تعدد الزوجات ، خالد عبد الرحمن (ص٧٢).

وتمضى أم حسان قائلة: أبنائى وأبناؤها لا يشعرون بأى تفرقة بينهما، فالأمور تسير على خير ما يرام، وزوجى الذى استطاع أن يسير بسفينة الحياة الزوجية إلى بر الأمان يستحق كل تقدير واحترام، فأسباب نشوء الغيرة تعود للزوج وأساليبه فى التعامل.

وتقول الزوجة الثانية :

بعد الزواج كانت لى رغبة فى التعرف على الزوجة الأولي، وافق زوجى وأخبرها بذلك. جاء اللقاء الذى اتسم بالهدوء واللطف، ومع مرور الأيام ازدادت معرفتنا بعضنا ببعض، وأصبح بيننا توافق واضح، ولم نشعر يومًا بحقد أو اختلاف، وبهذه الطريقة تملكتنا الفرحة والبهجة النابعة من النفوس الصافية والقلوب المطمئنة التى لا تغزوها الكراهية ولا تقترب منها؛ فمن كان مع الله كان الله معه.

وتضيف : ما هذا الوفاق ـ بعد فضل الله تعالي ـ إلا بفعل العدل الذى أمر الله به وعمل به زوجنا، وهذا التصرف الحسن ضاعف مكانته فى قلوبنا.

ألا فليتوخى كل زوج له أكثر من زوجة العدل فى زوجاته ، وليخاف الله تعالى فيهن، كى ينجو بسفينة البيت إلى بر الأمان، وينجو بنفسه أن يأتى يوم القيامة وشقه مائل.

ولتتق الله تعالى كل امرأة تزوج عليها زوجها ـ كانت زوجة أولى أو ثانية ـ فلا تستمع إلى أى قول من قريب أو بعيد يضاد شريعة الله تعالى، ولتنتبه إلى كل من تحاول أو يحاول إفساد حياتها الزوجية عليها بقصد أو بدون قصد، ولتحذر كل من يعظم لها كلام الناس، أو العادات والتقاليد ، ويهمل تعظيم شريعة رب العباد .

ولا تظن أنها تستطيع أن تعاقب زوجها بأن تكدر عليه عيشه وحياته، وأن تهجر فراشه ، ولا تكلمه إلا للحاجة، فإن قدر الزوج عظيم، وعصيانه وعقوقه خطر جسيم، مهما زين لها الشيطان، فماذا أنت قائلة لربك يوم الدين، لاسيما إذا كان الزوج عادلاً غير ظالم .

إذا انتبهت المرأة لذلك عاشت ـ إن شاء الله ـ قريرة العين، سليمة الصدر، مرتاحة البال، مطمئنة النفس، رغم أنف الحاقدين، وضلال المغرضين، وفساد الجاهلين (١) .

(١) للمؤلف رسالتان بعنوان: (موقف المرأة الصالحة من تعدد الزوجات)، (رسالة مهمة إلى الأزواج العازمين علي التعدد) ضمن سلسلة بعنوان: «ثغرات في بيوتنا»، فلتراجعا، ففيهما نفع عظيم إن شاء الله تعالى .

موقف ابنة سعيد بن المسيب من زوجها صبيحة زواجهما

موقف ابنة سعيد بن المسيب من زوجها صبيحة زواجهما

لمّا أن دخل بها زوجها ـ وكان من أحد طلبة العلم عند والدها ـ فلما أصبح أخذ رداءه يريد أن يخرج، فقالت له زوجته: إلى أين تريد؟

فقال: إلى مجلس سعيد أتعلم العلم.

فقالت له: اجلس أعلمك علم سعيد.

﴿ الدروس والعبر ﴾

أولاً : قصة زواج سعيد بن المسيب[1] :

جاء في ترجمته: أن عبد الله بن مروان خطب ابنته لولده الوليد حين ولاه العهد، فأبي أن يزوجها، قال أبو وداعة: كنت أجالس سعيد بن المسيب ففقدني أياماً، فلما جئت قال: أين كنت؟

قلت: تُوفيت أهلى، فاشتغلت بها.

قال: فهلّا أخبرتنا فشهدناها.

قال: ثم أردت أن أقوم.

فقال: هل أحدثت امرأة غيرها؟

فقلت: يرحمك الله ، ومن يزوّجنى وما أملك إلاَّ درهمين أو ثلاثة؟

فقالت: إن أنا فعلت تفعل؟

قلت: نعم، فحمد الله تعالى، وصلَّى على النبى وزوجنى على درهمين أو على ثلاثة.

قال: فقمت وما أدرى ما أصنع من الفرح، وصرت إلى منزلى، وجعلت أفكر ممَّن آخذ وأستدين؟ وصليت المغرب، وكنت صائمًا فقدَّمت عشائى لأفطر، وكان خبزاً وزيتاً، وإذا بالباب يُقرع، فقلت: من هذا؟

فقال : سعيد.

(١) انظر: عودة الحجاب للشيخ محمد إسماعيل (٢/ ٥٨١، ٥٨٢).

ففكرت فى كل إنسان اسمه سعيد إلا سعيد بن المسيب، فإنه لم يُرَّ منذ أربعين سنة إلاَّ ما بين بيته والمسجد، فقمت وخرجت، وإذا بسعيد بن المسيب، وظننت أنه بدا له.

فقلت: يا أبا محمد هلاَّ أرسلت إلىَّ فأتيتك؟

قال: لا ، أنت أحق أن تُزار.

قلت: فما تأمرنى؟

قال: رأيتك رجلاً عَزَبًا قد تزوجت فكرهتُ أن تبيت الليلة وحدك، وهذه امرأتك.

فإذا هى قائمة خلفه فى طوله، ثم دفعها فى الباب، وردَّ الباب، فسقطت المرأة من الحياء، فاستوثقت من الباب، ثم صعدت إلى السطح، وناديت الجيران، فجاءونى فقالوا: ما شأنك؟

قلت: زوجنى سعيد بن المسيب ابنته، وقد جاء بها على غفلة، وها هى فى الدار.

فنزلوا إليها، وبلغ أمى فجاءت وقالت: وجهى من وجهك حرام إن مسستها قبل أن أصلحها ثلاثة أيام.

فأقمت ثلاثًا ثم دخلت بها، فإذا هى من أجمل الناس ، وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ ، وأعرفهم بحق الزوج، قال: فمكثت شهرًا لا يأتينى ولا آتيه، ثم أتيته بعد شهر، وهو فى حلقته فسلمت عليه فردَّ علىَّ، ولم يكلمنى، حتى انفض مَنْ فى المسجد، فلما لم يبق غيرى، قال: ما حال ذلك الإنسان؟

قلت: على ما يحب الصديق، ويكره العدو.

وفى الإحياء بزيادة:

فقال: إن رابك منه أمرٌ، فدونك والعصا.

فانصرفت إلى منزلى ، فوجَّه إليَّ بعشرين ألف درهم(١) .

ثانيًا : حرص الزوج على تحصيل العلم الشرعي :

إن تصرف عبد المطلب بن وداعة رحمه الله صبيحة زواجه تصرفٌ يسترعى الانتباه والوقوف عنده وتدبره.

فقد أراد أن يترك زوجته صبيحة زواجه ليحضر مجلس العلم عند الإمام سعيد بن المسيب، ولكنها منعته، وقالت له: اجلس أعلمك علم سعيد، فهى من العلم بمكانة أن تعلم زوجها، وهو الآخر لم يدع الزواج عذراً له للتأخر عن درس العلم.

أقول هذا فى وقت هجر أكثر المسلمين دروس العلم فى المساجد، وانشغلوا عن آخرتهم بدنياهم، وعن ربهم بشهواتهم، حتى بعض الشباب المتدين نجده يدخل المسجد فى بداية التزامه بحماس وجد ويحرص على دروس العلم، فإذا ما تزوج تغيرت الصورة للأسف، فلعل فى موقف المطلب ابن وداعة رسالة إلى أصحاب الهمم الضعيفة كى تستيقظ من رقادها.

وقد ضرب سلفنا الصالح أعلى الأمثلة فى حرصهم على تعلم العلم الشرعى:

* روي البخارى فى صحيحه عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: «كنت أنا

---

(١) حلية الأولياء (٢/ ١٦٧)، سير أعلام النبلاء (٤/ ٢٣٣).

وجارٌ لى من الأنصار فى بنى أمية بن زيد ـ وهى من عوالى المدينة[(١)] ، وكنا نتناوب النزول على رسول الله ﷺ ينزل يومًا وأنزل يومًا، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحى وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك »[(٢)] .

فمن منا يفعل ما كان يفعله عمر بن الخطاب وجاره ؟ أم من يسأل أخاه اليوم عندما يفوته درس العلم، ما هو موضوع الدرس؟ وما هى عناصره؟ وهكذا...

* وروى عن معاذ بن جبل لما حضرته الوفاة أنه قال: اللهم إنك تعلم أنى لم أكن أحب البقاء فى الدنيا لكرى الأنهار ولا لغرس الأشجار، ولكن كنت أحب البقاء فيها: لمكابدة الليل الطويل، ولظمأ الهواجر فى الحر الشديد، ولمزاحمة العلماء بالرُّكب عند حِلَق الذكر.

* وروى البخارى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه قال: والذى لا إله غيره، ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا فيمن أنزلت، ولو أعلمُ أحداً أعلم منى بكتاب الله تبلُغُه الأبل، لركبت إليه.

* وهذا أبو الدرداء ﷺ يقول: لو أنسيت آية لم أجد أحداً يُذكرنيها إلاَّ رجلاً بَبرك الغمام[(٣)] ، رحلت إليه

* وهذا جابر بن عبد الله الأنصارى اشترى بعيراً، وسار شهراً حتى قدم الشام، يطلب حديثًا من عبد الله بن أُنيْس رضى الله عنه فيقول له: حديث بلغنى عنك أنك سمعته من رسول الله ، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه.

---

(١) قرى بقرب المدينة من ناحية الشرق.
(٢) فتح البارى (١/ ١٦٧) .
(٣) برْك الغمام: موضع بناحية اليمن.

* ويقول سعيد بن المسيب : إن كنت لأسير الأيام والليالى فى طلب الحديث الواحد.

* وعن المغيرة بن النعمان قال: سمعت سعيد بن جبير يقول: اختلف أهل الكوفة فى قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا...﴾ [النساء: ٩٣].

فرحلت فيها إلى ابن عباس، فسألته عنها، فقال: نزلت هذه الآية : ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ...﴾ الآية، فى آخر ما نزل، ما نسخها شىء.

* وقال هشام بن عبد الله الرازى الفقيه الحنفى: « لقيتُ ألفًا وسبعمائة شيخ، وخرج منى فى طلب العلم سبعمائة ألف درهم » .

* وقال أحمد بن سلمة النيسابورى : « وتزوج إسحاق بن راهويه بامرأة رجل كان عنده كُتبُ الشافعى ، مات، لم يتزوج بها إلاَّ للكتُب » .

* وقال الإمام أحمد بن حنبل: « رحلت فى طلب العلم والسُّنة إلى الثغور، والشامات، والسواحل، والمغرب، والجزائر، ومكة ، والمدينة، والحجاز، واليمن، والعراقية جميعاً، وفارس، وخراسان، والجبال، والأطراف، ثم عدتُ إلى بغداد، وخرجت إلى الكوفة » (١) .

ثالثًا : صور من سيرة المسلمة العالمة :

ويظهر ذلك جليًا من قول أبى وداعة عن زوجته: «فإذا هى من أجمل الناس، وأحفظهم لكتاب الله تعالى، وأعلمهم بسنة رسول الله ﷺ ، وأعرفهم بحق الزوج».

---

(١) انظر: «صلاح الأمة فى علو الهمة» للدكتور سيد العفانى الجزء الأول.

وهكذا كانت النساء منذ عصر النبوة حريصات على العلم، وذلك بسبب إحساسهن بمدى الحاجة الماسة إليه، فعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ فقالت: يا رسول الله ذهب الرجال بحديثك، فاجعل لنا من نفسك يومًا نأتيك فيه تعلمنا مما علمك الله، فقال ﷺ: « **اجتمعن فى يوم كذا وكذا فى مكان كذا** »، **فاجتمعن فأتاهن، فعلمهن مما علمه الله** »[(١)].

وعن عائشة ﵂ قالت: « نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن فى الدين ».

وهذه بعضٌ من نماذج حرصهن على أن ينهلن من معين العلم، ويأخذن منه بسهم وافر:

* فهذه حفصة بنت سيرين وقد قرأت القرآن، وهى ابنة اثنتى عشرة سنة، وماتت وهى ابنة تسعين.

* وروي أيوب بن سويد عن يونس عن ابن شهاب عن القاسم بن محمد أنه قال لى: يا غلام، أراك تحرص على طلب العلم، أفلا أدلك على وعائه؟ قلت: بلى، قال: عليك بعَمْرة[(٢)]، فإنها كانت فى حَجْر عائشة ﵂، قال: فأتيتها، فوجدتها بحرًا لا ينْزَف».

* وكان الإمام مالك يُقرأ عليه الموطأ، فإن لحن القارئ فى حرف أو زاد، أو نقص، تدق ابنته عليه الباب، فيقول: أبوها للقارئ: ارجع، فالغلط معك، فيرجع القارئ، فيجد الغلط.

---

(١) رواه البخارى ومسلم.
(٢) هى عمْرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة.

* وتصدرت أم الخير الحجازية حلقات وعظ وإرشاد المسلمات بجامع عمرو بن العاص رضى الله عنه فى القرن الرابع الهجرى.

* وكانت فاطمة بنت السمرقندى قد تفقهت على أبيها، وحفظت تحفته، وكان زوجها يخطئ فترده إلى الصواب، وكانت الفتوى تأتى فتخرج وعليها خطُّها، وخط أبيها.

وكانت فقيهة عالمة بالفقه والحديث، أخذت العلم عن جماعة من الفقهاء، وأخذ عنها كثيرون، وكان لها حلقة للتدريس، وقد أجازها جملة من كبار القوم، وكانت من الزهد والورع على جانب عظيم، وألفت المؤلفات العديدة فى الفقه والحديث، وانتشرت مؤلفاتها بين العلماء الأفاضل.

* وكانت أم زينب فاطمة بنت عباس بن أبى الفتح بن محمد البغدادية تصعد المنبر، وتعظ النساء، وانتفع بتربيتها والتخرج عليها خلق كثير، وكانت عالمة موفورة العلم فى الفقه والأصول.

* وسمعت عائشة بنت حمد بن عبد الهادى صحيح البخارى، وروى عنها الحافظ ابن حجر، وقرأ عليها كتباً عديدة، وانفردت فى آخر عمرها بعلم الحديث.

* وأم الهذيل لها روايات كثيرة، وقد قرأت القرآن وعمرها اثنتا عشرة سنة، وكانت فقيهة عالمة من خيار النساء.

* وكانت «وقاية» امرأة عالمة فاضلة، كانت بإحدي مدن ليبيا، وكان يلجأ إليها أفاضل العلماء، ويقولون: تعالوا بنا نستشير وقاية، فعصابتها خير من عمائمنا.

* « وأكثر ما عرف به الممتازات من نساء المغرب الأقصي حفظ القرآن الكريم يقرأنه جميعًا ورواية الحديث ودرس الفقه والأصول وما إلى هذه من علوم الدين، ويذكر أهل ذلك الإقليم ثمانين امرأة من نساء المغرب جمعهن إلى النفاذ فى ذلك كله ، حفظ مدونة الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه، وهى أكبر المطوّلات الجامعة الحديث والفقه»[(١)] .

رابعًا : أهمية العلم وفضله :

لو لم يكن للعلم فضل وأهمية، ما حرص على طلبه والرحلة إليه والتعب من أجل تحصيله الرعيل الأول من سلف هذه الأمة، ومن سار على دربهم إلى قيام الساعة.

لذا كان عبد المطلب بن وداعة من المهرولين صبيحة زواجه إلى درس العلم حتى لا يفوته منه شيء ، تعظيماً لقدرة وشرفه.

* قال تعالى: ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [آل عمران: ١٨].

* ونفي سبحانه التسوية بين أهل العلم وبين غيرهم ، فقال تعالى: ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [الزمر: ٩].

* وجعل سبحانه أهل الجهل بمنزلة العميان الذين لا يبصرون، فقال تعالى: ﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى ﴾ [الرعد:١٩] .

* وأخبر سبحانه عن رفعة درجات أهل العلم والإيمان

---

(١) المرأة العربية للأستاذ عبد الله عفيفى رحمه الله (٣/ ١٥٥).

خاصة فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]

* وقال ﷺ: « الدنيا ملعونة، ملعونٌ ما فيها، إلاَّ ذكر الله وما والاه وعالم ومتعلم »(١).

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « من جاء مسجدى هذا لم يأته إلا لخير يتعلَّمه أو يعلمه فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله، ومن جاء لغير ذلك فهو بمنزلة الرجل ينظر إلى متاع غيره »(٢).

* وقال رسول الله ﷺ: « فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سار الكواكب »(٣).

* وقال الإمام أحمد: الناس محتاجون إلى العلم أكثر من حاجتهم إلى الطعام والشراب؛ لأن الطعام والشراب يُحتاج إليه في اليوم مرة أو مرتين، والعلم يُحتاج إليه بعدد الأنفاس.

* **وقال أبو الأسود الدؤلي:**

العلم كنز وذخــرٌ لا نفــاد له ... نعم القرينُ إذا ما صاحبٌ صحبا
قـد يجـمع المرء مـالاً ثم يُسْلَبَـهُ ... عـمـا قليل فـيلقى الذُّلَّ والحَرَبَا
وجـامع العلم مـغـبـوطٌ به أبداً ... فـلا يحـاذر فـوتًا لا ولا هربًا
يا جامع العلم نعم الذُّخرُ تجمعه ... لا تعـدلنَّ به دُراً ولا ذهبـا(٤)

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجه وغيرهما وصححه الألبانى بشواهده (صحيح الترغيب والترهيب).
(٢) **صحيح**: رواه ابن ماجه والحاكم فى المستدرك وصححه (صحيح الجامع رقم ٦٠٦٠).
(٣) **صحيح**: رواه أبو نعيم فى الحلية عن معاذ، وصححه الألبانى (صحيح الجامع رقم ٤٠٨٨).
(٤) الفقيه والمتفقه للخطيب البغدادى (١/ ٥٢).

وقال الإمام ابن القيم رحمه الله :

« السعادة الحقيقية هى سعادة نفسانية روحية قلبية، وهى سعادة العلم النافع ثمرته، فإنها هى الباقية على تقلب الأحوال، والمصاحبة للعبد فى جميع أسفاره وفى دوره الثلاثة، وبها يترقى معارج الفضل ودرجات الكمال، وكلما طال الأمر ازدادت قوة وعلواً ...

وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها، وإنما رغب أكثر الخلق عن اكتساب هذه السعادة وتحصيلها، وعورة طريقها، ومرارة مصادرها، وتعب تحصيلها، وأنها لا تُنال إلاً على جسر من التعب، فإنها لا تحصل إلاً بالجد المحض »[١] .

خامساً : عرض الرجل وليته على الرجل الصالح :

وهذا ما فعله الإمام سعيد بن المسيب عندما عرض على أبى وداعة ابنته، وهذا ما رغبٌ فيه الإسلام أن يعرض الولى ابنته أو أخته على أهل الخير والصلاح.

وهذه وإن كانت سنّة مستغربة ـ فى زماننا هذا ـ فإن القرآن الكريم يقص علينا عرض صالح مدين ابنته على موسى .

قال الله تعالى: ﴿ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَىٰ أَن تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [القصص: ٢٧].

---

(١) مفتاح دار السعادة .

فهذا الشيخ الصالح يعرض على موسى عليه السلام الزواج من إحدى ابنتيه مقابل أن يخدمه ويرعى ماشيته ثمانية أعوام، فإن زادها إلى عشرة فهو تفضلٌ من موسى وإحسان.

قال القرطبي رحمه الله : فى هذه الآية عرضُ الولى ابنته على الرجل، وهذه سنة قائمة، فمن الحسن عرض الرجل وليته، والمرأة نفسها على الرجل الصالح[١].

وقال الشوكانى رحمه الله ـ : فى هذه الآية مشروعية عرض ولى المرأة لها على الرجل، وهذه سنة ثابتة فى الإسلام»[٢].

وقال الألوسى ـ رحمه الله ـ قال فى الإكليل : فيها استحباب عرض الرجل موليته على أهل الخير والفضل أن ينكحوها[٣].

وهكذا سنَّ القرآن هذه السنة الحميدة فى أمر النكاح، والتى تساير الفطرة ولا تناقضها، ولا جرم أن تجد السلف الصالح وقد انتشرت بينهم هذه السنة الطيبة، بحيث أصبحت من مألوفات الأمور ومحاسن العادات.

عمر رضي الله عنه يعرض ابنته :

روى البخارى فى صحيحه باب: «عرض الإنسان ابنته أو أخته على أهل الخير».

وكذا النسائى باب: «عرض الرجل ابنته على من يرضى» .

---

(١) الجامع لأحكام القران (١٣/ ٢٧١).
(٢) فتح القدير (٤/ ١٦٩).
(٣) روح المعانى (١١/ ١٠٤).

« أن عمر بن الخطاب حين تأيمت حفصة بنت عمر من خنيس ابن حذافة السهمي، وكان من أصحاب رسول الله ﷺ ، فتوفى بالمدينة، فقال عمر بن الخطاب :

« أتيت عثمان بن عفان فعرضت عليه حفصة، فقال: سأنظر فى أمرى، فلبثت ليالى ثم لقينى، فقال: قد بدا لى ألا أتزوج يومى هذا » .

قال عمر:

فلقيتُ أبا بكر الصديق، فقلتُ له: إن شئت زوجتك حفصة بنت عمر، فَصَمَتَ أبو بكر، فلم يرجع إلىَّ شيئًا، وكنتُ أَوْجَدَ عليه منى على عثمان، فلبثت ليالى ثم خطبها رسول الله ﷺ ، فأنكحتها إياه.

فلقينى أبو بكر، فقال: لعلك وجدتَ علىَّ حين عرضت علىَّ حفصة، فلم أرجع إليك شيئاً.

قال عمر: نعم. قال أبو بكر: فإنه لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت علىَّ إلاَّ أنى كنتُ علمت أن رسول الله ﷺ ذكرها، فلم أكن أفشى سر رسول الله ﷺ ، ولو تركها رسول الله ﷺ قبلتها [(١)] .

وهكذا كان يعرض عمر ؓ فى غير ما تحرج ولا تلعثم ولا التواء، ابنته على عثمان، ثم أبى بكر، وما هذا التصرف، إلا ثمرة من ثمرات المنهج الإسلامى الميسر الشديد التيسير الذى يأخذ فى اعتباره فطرة هذا الكائن البشرى، ما يصلحه وما يفسده، حتى بات هذا الأمر من الأمور المألوفة عندهم.

(١) البخارى (٩/ ٨١) رقم (٥١٢٢)، النسائى (٧٨١٦) رقم (٣٢٤٨) .

وإذا كان هذا هو منهج الإسلام فلم الخضوع لتقاليد باطلة سخيفة، بدعوى أن ذلك يخالف العرف أو عاداتنا ؟!

والحديث صريح الدلالة كما يقول الحافظ بن حجر على : « جواز عرض الإنسان بنته وغيرها من مولياته على من يعتقد خيره وصلاحه، لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه، وأنه لا استحياء فى ذلك، وأنه لا بأس بعرضها عليه ولو كان متزوجاً؛ لأن أبا بكر كان حينئذ متزوجاً »(١) .

أم حبيبة تعرض أختها :

روي البخارى ومسلم عن أم حبيبة بنت أبى سفيان زوج النبى ﷺ : «قالت: يا رسول الله أنكح أختى بنت أبى سفيان.

فقال: «أو تحبين ذلك» ؟

فقالت: نعم، لست لك بمخلية(٢) ، وأحب من شاركنى فى خير أختى .

فقال النبى ﷺ : «أن ذلك لا يحل لى».

قلت: فإنا نحدَّث أنك تريد أن تنكح بنت أبى سلمة.

قال: «بنت أم سلمة».

قلت: نعم.

قال: « لو أنها لم تكن ربيبتى فى حجرى(٣) ما حلت لى، إنها لابنة أخى من الرضاعة، أرضعتنى وأبا سلمة ثويبة، فلا تعرضن علىَّ بناتكن ولا

(١) فتح البارى (٩/ ٨٣).
(٢) لست بمنفردة عنك ولا خالية من ضرة.
(٣) الربيبة هى بنت الزوجة.

أخواتكن »[(١)].

أعرابي يعرض ابنته :

عن الفضل بن عباس قال :

« كنت رِدْف رسول الله ﷺ وأعرابى معه امرأة حسناء، فجعل الأعرابى يعرضها على رسول الله ﷺ رجاء أن يتزوجها، قال الفضل: فجعلت ألتفت إليها، وجعل رسول الله ﷺ يأخذ برأسي فيلويه »[(٢)].

أم تعرض ابنتها :

عن أنس ﷺ :

أن امرأة أتت النبى ﷺ ، فقالت: يا رسول الله، ابنة لى كذا وكذا... فذكرت من حسنها وجمالها، فآثرتك بها، فقال : « قد قبلتها ».

فلم تزل تمدحها حتى ذكرت أنها لم تصدع، ولم تشتكِ شيئًا قط، فقال: «لا حاجة لى فى ابنتك»[(٣)].

تنبيه مهم :

ينبغى على من عُرض عليه الزواج أن يقدر الولى العارض حق قدره، وينزله منزلته، ولا يسيء به الظن، بل يحمده على سلوكه طريق السلف فى ذلك، فإذا لم يرغب فى المعروضة عليه، فليتلطف فى الاعتذار للولى العارض، لئلا يعطل

(١) البخارى (٩/ ٤٣) رقم (٥١٠١)، ومسلم (٢/ ١٠٧٢) رقم (١٤٤٩).
(٢) رواه أبو يعلى وقال ابن حجر فى الفتح (٤/ ٦٨): إسناده قوى.
(٣) إسناده حسن أخرجه أحمد (٣/ ١٥٥)، وأبو يعلى (٧/ ٢٣٢).

المرأة عن غيره، ولا يفضح أمرها وأمر وليها، فيسير في الناس بسيرة سيئة: أن فلاناً عرض عليَّ ابنته فرفضت ، أو أن فلاناً يريد أن يزوجني ابنته أو أخته!! وكأنه ارتكب جريمة، بل يتقى الله تعالى، وليفهم حقيقة هذه الشريعة ومحاسنها.

موقف هاجر

عليها السلام

موقف هاجر عليها السلام

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : جاء إبراهيم ﷺ بأُم إسماعيل وبابنها إسماعيل وهي تُرضِعْه حتَّى وضعها عند البيت عند دوحة [(١)] فوق زمزم في أعلى المسجد وليس بمكة يومئذٍ أحد وليس بها ماء فوضعهما هناك ووضع عندهما جراباً[(٢)] فيه تمر وسقاء [(٣)] فيه ماءٌ ، ثم قفّى [(٤)] إبراهيم منطلقًا فتبعته أم إسماعيل فقالت : يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي ليس فيه أنيس ولا شيء ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها . قالت له : الله أمرك بهذا؟ قال : نعم . قالت : إذاً لا يُضيعنا ؛ ثم رجعت فانطلق إبراهيم ﷺ حتى إذا كان عند الثنية [(٥)] حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الدعوات فرفع يديه فقال : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ ﴾ [إبراهيم : ٣٦] حتى بلغ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء ، حتى إذا نفذ [(٦)] ما في السقاء عطِشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال يتلبط ـ [(٧)] فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبلٍ في الأرض يليها فقامت عليه ، ثم استقبلت الوادي تنظر هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادي رفَعت طرف درعها [(٨)] ثم سعت سعيَ الإنسان المجهود حتى

---

(١) **دوحة** : شجرة عظيمة .
(٢) **جراب** : ما يحمل فيه المسافر زاده من الطعام ، وهو أيضاً المِزْوَد .
(٣) **سقاء** : إناء يكون للبن والماء .
(٤) **قفَّى** : ولى ورجع .
(٥) **الثنية** : مكان بمكة .
(٦) **نفذ** : أي انتهى .
(٧) **التَلبط** : الاضطراب والتقلب ظهراً لبطن .
(٨) **درعها** : قميصها .

جاوزت الوادي ، ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحداً ؟ فلم تر أحداً ، ففعلت ذلك سبع مرات . قال ابن عباس رضي الله عنهما : قال النبي ﷺ : « **فلذلك سعي الناس بينهما** » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتاً فقالت : صه [١] ـ تريد نفسها ـ ثم تَسَمَّعت فسمعت أيضًا فقالت : قد أسمعتَ إن كان عندك غواثٌ [٢] فأغث ، فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه ـ أو قال بجناحه ـ حتّى ظهر الماء ، فجعلت تُحوِّضُه [٣] وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تغرِف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تغرف [٤] . وفي رواية بقدر ما تغرف . قال ابن عباس : رضي الله عنهما قال النبي ﷺ : « **رحم الله أم أسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عيناً معيناً** » [٥] قال : فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة [٦] فإن هاهنا بيتًا يبنيه هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يُضيع أهله . وكان البيت مرتفعًا من الأرض كالرّابية [٧] تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وعن شماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رُفقة من جُرْهُم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كَدَاء [٨] ، فنزلوا في أسفل مكة ؛ فرأوا طائراً عائفًا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه من ماء . فأرسلوا جَرِيًا [٩] أو جريين فإذا هم بالماء . فرجعوا فأخبروهم ؛ فأقبلوا وأم إسماعيل عند الماء .

---

(١) **صه** : اسم فعل بمعنى اسكت ، ومعناه : لما سمعت الصوت سكّتت نفسها لتتحققه .

(٢) **غواث** : إغاثة ومعونة .

(٣) **تُحوِّضه** : تجعل حوله حوضاً يمنع سيلانه إلى الأرض .

(٤) أخرجه البخاري (٤٥٦/٦ فتح) حديث رقم (٣٣٦٤) وأحمد في مسنده (٣٤٨/١) مختصراً .

(٥) **معيناً** : الماء الظاهر الجاري الذي لا يتعذر أخذه .

(٦) **الضيعة** : الضياع .

(٧) **الرابية** : الشيء المرتفع .

(٨) **كداء** : مكان بأعلى مكة .

(٩) **جرياً** : رسولاً .

فقالوا : أتأذنين لنا أن ننزل عندك ؟ قالت : نعم ، ولكن لا حق لكم في الماء . قالوا : نعم . قال ابن عباس : قال النبي ﷺ : « فألفى ذلك أم إسماعيل، وهي تحب الأنس ، فنزلوا فأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كانوا بها أهل أبيات وشبَّ الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم [١] وأعجبهم حين شبَّ فلمَّا أدرك زوَّجوه امرأة منهم . وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل ؛ فسأل امرأته عنه فقالت : خرج يبتغي لنا [٢] ـ وفي رواية : يصيد لنا ـ ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بِشَرٍّ ، نحن في ضيق وشدة ؛ وشكت إليه . قال : فإذا جاء زوجك أقرئي عليه السلام وقولي له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه آنس [٣] شيئًا فقال : هل جاءكم من أحد ؟ قالت : نعم جاءنا شيخٌ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته فسألني : كيف عيشنا فأخبرته أنَّا في جهد وشدة . قال : فهل أوصاك بشيء ؟ قالت : نعم أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول : غير عتبة بابك . قال: ذاك أبي وقد أمرني أن أُفارقك ! الحقي بأهلك فطلَّقها وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسأل عنه. قالت : خرج يبتغي لنا . قال : وكيف أنتم؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله . فقال : ما طعامكم ؟ قالت : اللحم. قال : فما شرابكم ؟ قالت : الماء . قال :اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال النبي ﷺ : « لم يكن لهم يومئذ حبٌّ ولو كان لهم دعا لهم فيه» قال : فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه [٤] ـ وفي رواية:

---

(١) **أنفسهم** : أي صار عندهم نفيسًا مرغوبًا فيه .
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ح ٣٣٦٤ /فتح) - **يبتغي** : يطلب لنا الرزق ويسعى فيه .
(٣) **آنس شيئًا** : أي أبصر شيئًا ، أراد كأنه رأى أثر أبيه وبركة قدومه .
(٤) أخرجه البخاري (٦/ ح ٣٣٦٤ /فتح) .

فجاء فقال : أين إسماعيل ؟ فقالت امرأته : ذهب يصيد ؛ فقالت امرأته : ألا تنزل فتطعم وتشرب ؟ قال : وما طعامكم وما شرابكم ؟ قالت : طعامنا اللحم وشرابنا الماء . قال : اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم ـ قال : فقال أبو القاسم ﷺ : « بركة دعوة إبراهيم » قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومُريه يثبِّت عتبة بابه . فلمَّا جاء إسماعيل قال : هل أتاكم من أحد . قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة ، وأثنت عليه ، وسألني عنك فأخبرته ، فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنَّا بخير . قال : فأوصاك بشيء ؟ قالت : نعم يقرأ عليك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك . قال : ذاك أبي ، وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ، ثمَّ لبث عنهم ما شاء ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبري نبلاً له تحت دوحة قريبًا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد . قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر . قال : فاصنع ما أمرك ربك ؟ قال : وتُعينني ، قال : وأعينك . قال : فإن الله أمرني أن أبني بيتًا ههنا وأشار إلى أَكَمَة [1] مرتفعة على ما حولها ، فعند ذلك رفع القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله وهما يقولان : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[البقرة : ١٢٧])[2] وفي رواية : إن إبراهيم خرج بإسماعيل وأم إسماعيل معهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعها تحت دوحة ثم رجع إبراهيم إلى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى لمَّا بلغوا كداء نادته من ورائه : يا إبراهيم إلى من تتركنا ؟ قال : إلى الله ، قالت : رضيت بالله . فرجعت وجعلت تشرب من الشنة ويدرُّ لبنُها على صبيها حتى لما فنيَ الماء قالت : لو

---

(١) **أكمة** : ما ارتفع من الأرض كالرابية .

(٢) أخرجه البخاري (٦/٣٣٦٥ /فتح) .

ذهبت فنظرت لعلي أُحس أحداً .قال : فذهبت فصعدت الصفا ، فنظرت ونظرت هل تُحسُّ أحداً فلم تحس أحداً فلما بلغت الوادي وسعت وأتت المروة وفعلت ذلك أشواطًا ثم قالت : لو ذهبت فنظرت ما فعل الصبي ، فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت [١] فلم تُقِرَّها نفسها فقالت : لو ذهبت فنظرت لعلِّي أُحسُّ أحداً ، فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تُحس أحداً حتى أتمَّت سبعًا ثم قالت : لو ذهبتُ فنظرتُ ما فعل ، فإذا هي بصوت ، فقالت : أَغثْ إن كان عندك خيرٌ ، فإذا جبريل ﷺ فقال بعقبيه هكذا ، وغمز بعقبه على الأرض فانبثق الماء [٢] فدهشت أم إسماعيل [٣] فجعلت تحفن - وذكر الحديث بطوله ؛ رواه بهذه الروايات كلها .

---

(١) نشغ للموت : أي شهق للموت .
(٢) انبثق الماء : جرى الماء .
(٣) أخرجه البخاري (٦/ح ٣٣٦٥/فتح) .

﴿ الدروس والعبر ﴾

أولاً : التوكل .. معناه أهميته ومنزلته في الدين :

معني التوكل :

قال في لسان العرب :(وكل)

في أسماء الله تعالى الوكيل : هو المقيم بأرزاق العباد وحقيقته أنه يستقل بأمر الموكول إليه وفي التنزيل العزيز ﴿ أَلاَّ تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلاً ﴾ [الإسراء : ٢]

قال الفراء : يقال رباً ويقال كافياً .

وقيل : الوكيل الحافظ .

وقال أبو إسحاق : الوكيل في صفة الله تعالى الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق .

وقال بعضهم : الوكيل الكفيل (١) .

أقوال السلف في معاني التوكل :

- قال الحسن : توكل العبد على ربه : أن يعلم أن الله هو ثقته .

- وسئل عبد الله القرشي عن التوكل فقال : التعلق بالله تعالى في كل حال .

- وقال ابن رجب رحمه الله : « حقيقة التوكل : هو صدق اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المنافع ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها ، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه » (٢) .

---

(١) لسان العرب (٦/٤٩٩).

(٢) جامع العلوم والحكم .

- وقال ابن كثير في تفسير قوله تعالى : ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال : ٢] « أي لا يرجون سواه ، ولا يقصدون إلا إياه ، ولا يلوذون إلا بجنابه ، ولا يطلبون الحوائج إلا منه ، ولا يرغبون إلا إليه ، ويعلمون أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأنه المتصرف في الملك لا شريك له ، ولا معقب لحكمه وهو سريع الحساب » (١) .

أهمية التوكل ومنزلته فى الدين :

هو من أعظم منازل ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ ، فلا يحصل كمال التوحيد بأنواعه الثلاثة إلا بكمال التوكل على الله كما في قوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة : ٢٣] .

قال ابن القيم رحمه الله: « فجعل التوكل على الله شرطًا في الإيمان ، فدلَّ على انتفاء الإيمان عند انتفائه ، وفي الآية الأخرى : ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَا قَوْمِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [يونس : ٨٤] فجعل دليل صحة الإسلام التوكل ، وكلما قوي توكل العبد كان إيمانه أقوى ، وإذا ضعف الإيمان ضعف التوكل ، وإذا كان التوكل ضعيفًا كان دليلاً على ضعف الإيمان ولابد .

والله تبارك وتعالى يجمع بين التوكل والعبادة ، وبين التوكل والإيمان ، وبين التوكل والتقوى ، وبين التوكل والإسلام ، وبين التوكل والهداية .

فظهر أن التوكل أصل لجميع مقامات الإيمان والإحسان ، ولجميع أعمال الإسلام ، فكذلك لا يقوم الإيمان ومقاماته وأعماله إلا على ساق التوكل » (٢) .

---

(١) تفسير ابن كثير (٢/٢٨٥) .

(٢) طريق الهجرين وباب السعادتين (٣٢٧ - ٣٣٠)

- كذلك التوكل أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] .

- كان السلف يعدون التوكل أصلاً لجميع الأعمال الصالحة كما قال سعيد بن جبير : التوكل جماع الإيمان .

وقال وهب بن منبه : التوكل الغاية القصوى .

ثانيًا : فضل التوكل على الله وجزاء المتوكلين :

تكاثرت الآيات والأحاديث النبوية في بيان فضل التوكل على الله عز وجل وجزاء المتوكلين ، منها :

_ قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ [آل عمران : ١٥٩] فدلت الآية على أن أهل التوكل هم أهل محبة الله عز وجل .

_ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال : ٢] فدلت الآية على أن أهل التوكل هم أهل الإيمان والتقوى .

_ وقوله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النمل : ٩٩] فدلت الآية على أن المتوكلين ليس للشيطان عليهم سبيل .

_ وقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [الطلاق : ٣] فهذا وعد من الله عز وجل أنه سيكون للمتوكلين عليه كافيهم وحسبهم .

وأما الأحاديث فمنها :

ـ قوله ﷺ : « من قال ـ يعني إذا خرج من بيته ـ بسم الله توكلت على الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ، يقال له : هُديت وكُفيت ووُقيت وتنحى عنه الشيطان » ، وفي زيادة لأبي داود : « فيقول الشيطان لشيطان آخر : كيف لك برجل قد هُدي وكُفي ووُقي »(١) .

ـ وقوله ﷺ : « يا فلان إذا أويت إلى فراشك فقل : اللهم أسلمت نفسي إليك ، ووجهت وجهي إليك ، وفوضت أمري إليك ، وألجأت ظهري إليك ، رغبة ورهبة إليك ، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك ، آمنت بكتابك الذي أنزلت ، ونبيك الذي أرسلت . فإنك إن مت متَّ على الفطرة ، وإن أصبحت أصبت خيراً »(٢)

ولا يخفى على أحد أن الاستسلام لله والتوجه والتفويض والالتجاء إليه سبحانه وتعالى وكذلك الرغبة والرهبة كلها داخلة في معنى التوكل .

قال بعض السلف : متى رضيت بالله وكيلاً وجدت إلى كل خير سبيلاً .

ـ وقوله ﷺ : « يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير »(٣) والمراد المتوكلون كما حكى النووي في هذا الحديث .

ـ وقوله ﷺ : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً »(٤) ففي هذا الحديث دلالة واضحة على أن التوكل على الله تعالى مجلبة للرزق .

---

(١) رواه أبو داود والترمذي والنسائي ، وصححه الألباني (صحيح سنن الترمذي برقم ٢٧٢٤) .
(٢) متفق عليه .
(٣) رواه مسلم .
(٤) رواه أحمد والترمذي وابن ماجة ، وصححه الألباني (صحيح سنن ابن ماجة برقم ٣٣٥٩)

ثالثًا : أقسام التوكل :

وهو قسمان :

١ـ التوكل الجائز :

وهو توكيل الإنسان غيره في فعل ما يقدر عليه ، وهذا لا حرج فيه ، بشرط أن لا يتعلق قلبه بمن وكله ، بل يتعلق قلبه بالله وحده في كل الأمور .

٢ ـ التوكل غير الجائز

وهو نوعان :

أحدهما : شرك ، وهو التوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ، كمن يتوكل على أصحاب القبور من الأموات .

والثاني : شرك أصغر ، وهو التوكل على غير الله في فعل ما لا يقدر عليه، ولكن معتمداً بقلبه على المخلوق في حصول حاجته لا على الخالق .

رابعًا : سمات المتوكلات علي الله :(١)

التوكل على الله ليس لفظاً ينطق به المسلم أو المسلمة ، وإنما هو حقيقة استقرت في القلب بتمام الاعتماد على الله تعالى ، والانطراح بين يديه عز وجل ، لذا كان للمسلمة التي تتوكل على الله حق توكله سمات بارزة وعلامات واضحة تدل على ذلك ، فمنها :

استشعار الفقر إلي الله فى كل حال :

فمصاحبة هذا الشعور للمؤمنة له أثر كبير في توجهها إلى ربها واعتمادها عليه دائماً ، فهي تشعر أنها في حاجة ملحة إلى ربها ، ولا تستطيع أن تتقدم أو

(١) انظر « التوكل حقيقته ومنزلته في الدين » خالد بن محمد عبد المنعم آل العبد .

تتأخر إلا بإذنه تعالى وفضل رعايته سبحانه ، وهي في ذلك تستمد هذا الشعور من إيمانها بقدرته وغناه عز وجل ، ومن النظر في الكتاب العزيز والسنة المطهرة.

فهي تقرأ : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر : ١٥] .

وتقرأ : ﴿ قُلْ مَن يَكْلَؤُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ [الأنبياء : ٤٢] .

وتقرأ : ﴿ وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ﴾ [الأعراف : ٤٣] .

الذكر والدعاء واللجوء إلي الله فى الشدة والرخاء والاستعاذة بجانبه :

فهو سبيل من سبل تحقيق التوكل ، وهو فرع من استشعار الفقر إلى الله ، كما أنه سمة من سمات المتوكلين ، فأنقى الناس لله وأكملهم توكلاً هم الأنبياء ثم الصالحون ، وإذا نظرنا في أحوالهم لوجدناهم أكثر الخلق ذكراً ودعاءً ولجوءً إلى بارئهم ، وأدومهم استعاذة بجنابه تبارك وتعالى .

فمحمد ﷺ كان يحفظ له في المجلس الواحد أكثر من سبعين مرة يستغفر فيها ربه .

ونوح عليه السلام يستجير بربه ويستعيذ بمولاه ويستنصره داعياً : ﴿ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ ﴾[القمر : ١٠] وإبراهيم عليه السلام يقول في ثقة ويقين وتوكل مع توجه إلى الله : ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ (٩٩) رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ (١٠٠) ﴾ [الصافات : ٩٩، ١٠٠] .

الصبر والاحتساب عند الصدمات والمصائب ، والرضا بقدر الله ومحبة هذا القضاء :

فلا شك أن هذه الأمور تمثل مقياسًا يقاس به توكل العبد على ربه ، إذ إنه لو لم يكن صابراً محتسباً راضياً بقضاء الله وقدره ، لما كان متوكلاً .

ولهذا ذُكر عن بعض الحكماء أنه قال : التوكل على ثلاث درجات : أولها : ترك الشكاية ، والثانية : الرضا ، والثالثة : المحبة ، فالأولى للزاهدين ، الثانية للصادقين ، والثالثة للمرسلين [١] .

تحقيق التوحيد والاهتمام بالعبادات القلبية :

كالخوف والرجاء والرغبة والخشية والإنابة والصبر والرضا والمحبة وغيرها من العبادات القلبية التي كلما قويت قوي معها توحيد الله عز وجل ، وقوي بالتالي توكل صاحبها على ربه جل وعلا .

الاستعانة بالله مع الأخذ بالأسباب وترك العجز :

فهذا ما وجه إليه النبي ﷺ بقوله : « استعن بالله ولا تعجز » [٢] .

ومعلوم أن التقصير في الأخذ بالأسباب إنما هو قدح في توكل العبد على ربه .

وكان النبي ﷺ يُعلم ويُعود أصحابه الاستعانة بالله في كل شأنهم وسائر أحوالهم ، ولعل أقوى ما يعبر عن ذلك حديث جابر في الاستخارة التي هي من أعظم مظاهر التفويض إلى الله والتوكل عليه والاستعانة به .

يقول جابر : كان الرسول ﷺ يعلمنا الاستخارة في الأمور كلها ، كما يعلمنا السورة من القرآن ، يقول : « **إذا هم أحدكم بالأمر فليركع ركعتين من غير الفريضة ، ثم ليقل اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر - ويسمي حاجته - خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاقدره لي ويسره لي ثم بارك لي فيه ،**

(١) جامع العلوم والحكم لابن رجب الحنبلي (٥١٨/٢) تحقيق طارق أحمد محمد .

(٢) رواه مسلم .

وإن كنت تعلم أن هذا الأمر ـ ويسمي حاجته ـ شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري فاصرفه عني واصرفني عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ثم رضني به » (١)

ومن مظاهر استعانته ﷺ ما كان يقوله عند الكرب :

« اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين وأصلح لي شأني كله » (٢)

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ كان يدعو بهذه الكلمات : « اللهم أعنّي ولا تعن عليّ ، وانصرني ولا تنصر عليّ ، وامكر لي ولا تمكر عليّ ، واهدني ويسر الهدى لي ، وانصرني على من بغى علي ، رب اجعلني لك شكاراً ، لك ذكاراً ، لك رهّاباً ، لك مطْواعًا ، لك مخبتًا ، إليك أواهاً منيباً ، رب تقبل توبتي ،واغسل حوبتي ، وأَجب دعوتي ، وثبت حجتي ، واهد قلبي وسدد لساني واسلل سخيمة صدري » (٣)

النظر فى أحوال المتوكلين وقراءة سيرهم ، ومصاحبة أهل التوكل :

فمما لا شك فيه أن النظر في سير هؤلاء ومصاحبتهم حياة للقلوب ، ودافع للاقتداء والتأثر بهم .. » (٤)

---

(١) رواه البخاري .
(٢) رواه أبو داود ، وحسنه الألباني – صحيح سنن أبي داود (٤٢٤٦) .
(٣) صحيح : صحيح سنن الترمذي (٢٨١٦) .
(٤) التوكل حقيقته ومنزلته في الدين – ص (١٠٢، ١٠٣) .

خامسًا : إبراهيم وهاجر عليهما السلام .. المثل والقدوة في التوكل

يظهر لنا في هذه القصة أعلى درجات التوكل والثقة بالله وقوة الاعتماد عليه سبحانه وتعالى ، وذلك حين ترك إبراهيم عليه السلام فلذة كبده ، ووحيده الذي رزق به بعد دعاء وتوجه لله ، في مكان لا حياة فيه ، مكان قفر ، لا زرع فيه ولا ضرع ، ولا جليس ولا أنيس ، وكل ذلك تنفيذاً لأمر الله ، ومسارعة إلى طاعته .

وهكذا كان كل الأنبياء والمرسلين ، فهذا نوح عليه السلام يخبر الله عنه : ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلا تُنظِرُونِ ﴾[يونس : ٧١] فلما تسلح عليه السلام بسلاح التوكل على الله، ماذا كانت النتيجة ؟ ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ ﴾ [يونس : ٧٣] .

وهذا نبي الله هود عليه السلام حين قال له قومه : ﴿ إِن نَّقُولُ إِلاَّ اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٥٤) مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لا تُنظِرُونِ (٥٥) ﴾[هود : ٥٤، ٥٥] فما كان سلاحه عليه السلام : ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ [هود : ٥٦] ، فماذا كانت النتيجة ؟ ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ [هود : ٥٨]

كذلك من ثمار التوكل على الله عز وجل حفظ الله تعالى لأوليائه وعدم التخلي عنهم ، ألا ترى كيف أخرج الماء لهاجر ؟! وأتى بأناس يسكنون معها ، ويؤنسون وحشتها ، ويعلمون ابنها العربية الفصحى .

ومن فقه التوكل أن السعى علي الرزق والمعاش لا ينافى التوكل :

فإن هاجر عليها السلام لما فنى منها الزاد والماء قامت إلى الصفا والمروة ، تسعى بينهما تحاول أن تجد أحداً يسعفها ، ولم يخدش ذلك توكلها على الله تعالى ، بل جعل الله تعالى مكان سعيها شعيرة من شعائر الله الحج وهو السعي بين الصفا والمروة .

سادساً : أهمية اختيار الزوجة الصالحة :

إذا سُئل الإنسان عن حاله فينبغي له ألا يظهر الشكوى والضيق والسخط إن كان في شدة ، بل يحمد الله تعالى ويرضى ويقنع بما قسمه الله تعالى له من رزق ، بل ويظهر رضاه بحاله ، فهذه امرأة إسماعيل الأولى حين شكت الضيق والشدة ، أمره إبراهيم عليه السلام بمفارقتها ، أما امرأته الثانية حين أثنت على الله وأظهرت رضاها بحالها أمره بإمساكها .

إن الزوجة التي تطيل الشكوى ، وتكثر التبرم لا يمكنها أبداً أن تكون عوناً لزوجها على المهمات الكبار لا سيما إن كان من أهل العلم والدعوة ، أما الزوجة الراضية القانعة فهي خير معين بعد الله تعالى لزوجها في دروب الحياة المختلفة .

لذا فإنه يجدر بكل رجل أن يدقق في اختيار شريكة حياته ، حتى لا يقع فريسة لامرأة غير متدينة وبالتالي يرى منها من السلوكيات ما لا يرضاه .

يقول محمد بن إبراهيم الحمد (١) :

(فمن الزوجات من هي كثيرة التسخط ، قليلة الحمد والشكر ، فاقدة لخلق القناعة ، غير راضية بما آتاها الله من خير .

(١) من أخطاء الزوجات ص (١٢ – ١٨).

فإذا سُئلت عن حالها مع زوجها أبدت السخط ، وأظهرت الأسى واللوعة ، وبدأت بعقد المقارنة بين حالها وحال غيرها من الزوجات اللائي يحسن إليهن أزواجهن .

وإذا قدم لها زوجها مالاً سارعت إلى إظهار السخط ، وندب الحظ ؛ لأنها تراه قليلاً مقارنة بما يقدم لنظيراتها .

وإذا جاءها بهدية احتقرت الهدية ، وقابلتها بالكآبة ، فتدخل على نفسها وعلى زوجها الهم والغم بدل الفرح والسرور ؛ بحجة أن فلانة من الناس يأتيها زوجها بهدايا أنفس مما جاء بها زوجها .

وإذا أتى بمتاع أو أثاث يتمنى كثير من الناس أن يكون لهم مثله – قابلته بفظاظة وشراسة منكرة ، وبدأت تظهر ما فيه من العيوب .

وبعضهن يحسن إليها الزوج غاية الإحسان ، فإذا حصلت منه زلة ، أو هفوة ، أو غضبت عليه غضبة – نسيت كل ما قدم لها من إحسان ، وتنكرت لما سلف له من جميل .

وهكذا تعيش في نكد وضيق ، ولو رزقت حظاً من القناعة لأشرقت عليها شموس السعادة .

ومثل هذه المرأة يوشك أن تسلب منها النعم ، فتقرع بعد ذلك سن الندم ، وتعض أناملها ، وتقلب كفيها على ما ذهب من نعمها .

إن السعادة الحقة إنما هي بالرضا والقناعة ، وإن كثرة الأموال والتمتع بالأمور المحسوسة الظاهرة – لا يدل على السعادة ؛ فماذا ينفع الزوجة أن تتلقى من زوجها الحلي والنفائس والأموال الطائلة إذا هي لم تجد المحبة ، والحنان ، والرحمة ، والمعاملة الحسنة ؟

وماذا ستجني من جراء تسخطها إلا إسخاط ربها ، وخراب بيتها ، وتكدير

عيشة زوجها ؟ [١]

فواجب على المرأة العاقلة أن تتجنب التسخط ، وجدير بها أن تكون كثيرة الشكر ؛ فإذا سُئلت عن بيتها وزوجها وحالها أثنت على ربها ، وتذكرت نعمه، ورضيت قسمته ؛ فالقناعة كنز الغنى ، والشكر قيد النعم الموجودة ، وصيد النعم المفقودة ؛ فإذا لزم الإنسان الشكر درت نعمه وقرّت ؛ فمتى لم تر حالك في مزيد فاستقبل الشكر .

كيف وقد قال ربنا ـ عز وجل ـ : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴾ [إبراهيم : ٢٧] . بل يحسن بالزوجة أن تشكر ربها إذا نزل بها ما تكرهه ؛ شكراً لله على ما قدره ، وكظمًا للغيظ ، وستراً للشكوى ، ورعاية للأدب [٢] .

ثم إن الشكوى للناس لا تجدي نفعًا ، ولا تطفئ لوعة ـ في الغالب ـ .

ولهذا رأى بعض السلف رجلاً يشكو إلى رجل فاقته وضرورته فقال : « يا هذا ، والله ما زدت على أن شكوت من يرحمك إلى من لا يرحمك » [٣]

وإذا اعترتك بلية فاصبر لها صبر الكريم فإنه بك أعلم
وإذا شكوت إلى ابن آدم إنما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم [٤]

وإن كان هناك من حاجة لبث الشكوى لمن يعنيهم الأمر ؛ طلبًا للنصيحة، أو نحو ذلك ـ فلا بأس ، وإلا فلماذا نثير انتباه الذين لا يُعنيهم أمرنا ، ولا ننتظر منهم أي فائدة لنا ، فنفضح أنفسنا ، ونهتك أستارنا ، ونُبين عن ضعفنا وخورنا في سبيل الحصول على شفقة أو عطف ليس له من نتيجة سوى ازدياد الحسرة

(١) انظر إصلاح المجتمع ص (٣٠٨) ، ونظرات في الأسرة المسلمة ص (١١١) .
(٢) انظر مدارج السالكين لابن القيم (٢/١٩٩، ٢٤٣) .
(٣) الفوائد لابن القيم ص (١٣١) .
(٤) مدارج السالكين (٢/١٦٠) .

وتفاقم المصيبة (١) .

ثم إن من حق الزوج على زوجته أن تعترف له بنعمته ، وأن تشكر له ما يأتي به من طعام ولباس ، وهدية ونحو ذلك مما هو في حدود قدرته ، وأن تدعو له بالعوض والإخلاف ، وأن تظهر الفرح بما يأتي به ؛ فإن ذلك يفرحه ، ويبعثه إلى المزيد من الإحسان.

كما يحسن بالزوجة أن تستحضر أن الزوج سبب الولد ، والولدُ من أجلّ النعم ، ولو لم يكن من فضل الزوج إلا هذه النعمة لكفاه ؛ « فمهما تكن الزوجة شقية بزوجها فإن زوجها قد أولدها سعادتها ، وهذه وحدها مزية ونعمة » (٢) .

أما كفر النعمة ، وجحود الفضل ، ونسيان أفضال الزوج ـ فليس من صفات الزوجة العاقلة المؤمنة ؛ فهي بعيدة عن ما لا يرضي الله – عز وجل – فجحودُ فضل الزوج سماه الشارع كفراً ، ورتب عليه الوعيد الشديد ، وجعله سبباً لدخول النار .

قال ﷺ : « رأيت النار ورأيت أكثر أهلها النساء » .

قالوا: لم يا رسول الله ؟

قال : « يكفرن العشير ، ويكفرن الإحسان ؛ لو أحسنت إلى إحداهن الدهر ثم رأت منك شيئاً قالت : ما رأيت منك خيراً قط » (٣) .

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « لا ينظر الله إلى

(١) انظر طريق النجاح د . بول جاغو ، تلخيص بهيج شعبان ص (٨٧) .
(٢) وحي القلم للرافعي (٢٩٢/١) .
(٣) رواه البخاري (٢٩) ، ومسلم (٩٠٧) .

امرأة لا تشكر لزوجها وهي لا تستغني عنه »[(١)] .

وعن أسماء ابنة يزيد الأنصارية قالت : « مرَّ النبي ﷺ وأنا وجوارٍ أتراب لي فسلم علينا ، وقال : « إياكنَّ وكفر المُنْعمين » ، وكنت من أجرئهن على مسألته ، فقلت : يا رسول الله ! وما كفر المنعمين ؟ .

قال : « لعل إحداكنَّ تطول أيْمتُها من أبويها ، ثم يرزقها الله زوجًا ، ويرزقها ولدًا ، فتغضب الغضبة ، فتكفر ، فتقول: ما رأيت منك خيرًا قط »[(٢)] .

ومن الزوجات من تخدم زوجها ، وتقوم على رعايته ، ورعاية والديه ، ولكنها أنّانة منّانة ، فلا تكاد تمضي مدة إلا وتُذكّر زوجها بأفضالها ، وأياديها السالفة عليه ؛ فتؤذيه بالمن ، والأذى ، والإدلال .

والمنة خلق ساقط يجدر بالزوجة أن تتجافى عنه ، ولئن كانت المنة قبيحة من كل أحد فلهي أقبح وأقبح إذا صدرت من الزوجة تجاه زوجها ؛ فالمنة تهدم الصنيعة ، وتصدع قناة العزة .

ولقد نهى الله ـ عز وجل ـ عن المنة بقوله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَىٰ﴾[البقرة : ٢٦٤] .

وعن أبي ذر ﷺ عن النبي ﷺ قال : « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ، ولا يزكيهم ، ولهم عذاب أليم » .

---

(١) رواه النسائي في الكبرى (٩١٣٥ - ٩١٣٦) ، والبيهقي (٢٩٤/٧) ، والحاكم (٧٨/٣)، وقال : صحيح الإسناد . وقال الهيثمي ٣٠٩/٢ : رواه البزار بإسنادين والطبراني ، وأحد إسنادي البزار ورجاله رجال الصحيح ، وصححه الألباني في الصحيحة (٢٨٩) .

(٢) رواه أحمد (٤٥٧/٦)، والبخاري في الأدب المفرد (١٤٨) ، والترمذي (٢٦٩٧) وحسنه ، والطبراني في الكبير (١٧٧/٢٤) ، والحميدي في مسنده (١٧٩/١) ، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد (٨٠٠) .

قال : فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، قال أبو ذر : خابوا وخسروا من هم يا رسول الله؟

قال : « **المسبل ، والمنان ، والمنفق سلعته بالحلف الكاذب** »[(١)] .

ويروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال : « لا يتم المعروف إلا بثلاث : بتعجيله، وتصغيره ، وستره ؛ فإذا عجّله هنّأه ، وإذا صغّره عظّمه ، وإذا ستره تمّمه »[(٢)]

وقال رجل لبنيه : « إذا اتخذتم عند رجل يداً فانسوها »[(٣)] .

وقال الشاعر :

أفسدتَ بالمنّ ما أسديتَ من حسن   ليس الكريم إذا أسدى بمنان[(٤)]

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ :

مننُ الرجال على القلو   ب أشد من وقع الأسنة[(٥)]

وقال البارودي ـ رحمه الله ـ :

تحمّلتُ خوف المنّ كل رزيئة   وحمل رزايا الدهر أحلى من المن[(٦)]

ومع أن المنة وتعداد الأيادي ليس من صفات الكرام إلا أنه يسوغ في حال المعاتبة والاعتذار .

قال ابن حزم ـ رحمه الله ـ : « حالان يحسن فيهما ما يقبح في غيرهما، وهما المعاتبة والاعتذار ؛ فإنه يحسن فيهما تعديد الأيادي ، وذكر الإحسان ، وذلك غاية القبح في ما عدا هاتين الحالتين » .

---

(١) رواه مسلم (١٠٦) .
(٢، ٣، ٤) عيون الأخبار (١٧٧/٤) .
(٥) ديوان الشافعي تحقيق د . محمد عبد المنعم خفاجي ص (١٣٥) .
(٦) ديوان البارودي ص (٥٤٩) .

وعلى هذا يسوغ للزوجة إذا احتاجت إلى عتاب زوجها أو الاعتذار إليه أن تذكره بشيء من أياديها ، لا على سبيل المنة والإدلال، وإنما لتذكره بما له عندها من المنزلة ، والتقدير .

٧ - طاعة الله تعالى أولى عند المسلمة من كل شيء :

إن المسلمة إذا قدمت طاعة الله تعالى على حظ نفسها وهواها ، جعل الله البركة في أفعالها وما تلمسه بعض أعضائها .

فإن إبراهيم عليه السلام لما ترك ابنه في مكان قفر امتثالاً لأمر الله تعالى وثقة به سبحانه وتعالى وتوكلاً عليه ، جعل الله البيت الذي بناه مباركًا ، فقال تعالى : ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾ [آل عمران : ٩٦] وجعل الحجر الذي قام عليه وهو يبني البيت مكانًا يصلى عنده فقال تعالى : ﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾ [البقرة : ١٢٥] .

كما أن استجابة إبراهيم عليه السلام لأمر الله تعالى في إسكان ابنه وزوجته في ذلك المكان على الرغم من صعوبة الأمر عليه ، لدليل على تقديم أمر الله تعالى على ما يكره العبد ، مع أنه عليه السلام لم يعلم بأن ذلك سيعقبه خير ولكنه تمام التوكل على الله تعالى والاستجابة المطلقة لأمر الله عز وجل .

وهكذا يجب أن تكون المسلمة . .

طاعة الله تعالى عندها لا يسبقها شيء ، وإيثار محاب الله تعالى على محاب النفس علامة من علامات محبتها لله تعالى ، وذلك من آثار الإيمان القوي بالله تعالى

إن من علامات محبة الله تعالى : أن تحب المسلمة شريعة الله تعالى ، فتلزم نفسها بها ، وتدعو الناس إليها ، وتجاهد في سبيل إعلاء شأنها ، ولا تخاف في

ذلك لومة لائم .

إن إيثار رضى الله تعالى على رضى غيره ، وتقديم طاعته تعالى ولو أغضبت الخلق ، يجب أن يكون منتهى آمال كل مؤمنة ، نسعى لتحقيقه ، وتبذل الغالي والرخيص للوصول إليه ، وهذا هو طريق السعادة لكل مسلمة ألا وهو طاعة رب العباد :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .
[الأنفال : ٢٤]

فالحياة النافعة إنما تحصل بالاستجابة لله ورسوله ، فمن لم تحصل له هذه الاستجابة فلا حياة له ، وإن كانت له حياة بهيمية مشتركة بينه وبين أذل الحيوانات ، فالحياة الحقيقية الطيبة هي حياة من استجاب لله والرسول ظاهراً وباطناً ، فهؤلاء هم الأحياء وإن ماتوا ، وغيرهم أموات وإن كانوا أحياء الأبدان. ولهذا كان أكمل الناس حياة أكملهم استجابة لدعوة الرسول ، فإن كل ما دعا إليه ففيه حياة ، فمن فاته منه فاته جزء من الحياة ، وفيه من الحياة بحسب ما استجاب للرسول [١] .

وقال تعالى : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل : ٩٧] .

قال القاسمي رحمه الله : « هذا وعد من الله تعالى لمن عمل صالحًا وهو العمل التابع لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ من ذكر أو أنثى ، وهو ثابت على إيمانه إلى الموت ، بأن يحييه الله تعالى حياة طيبة » [٢] .

---

(١) الفوائد لابن القيم رحمه الله - ص (٦٧) .
(٢) محاسن التأويل (١٠/١٥٦) .

وقال الأستاذ سليم الهلالي :

(إن للمؤمنين أهل محبة الله من النعم والسرور والفرح بالله ما لا يجده إلا من ذاق طعم الإيمان ، فمن ذاق عرف ، ومن عرف اغترف من نهر المحبة الخالصة الذي فجره الله في قلوب أوليائه ، فسلكه ينابيع في جوارحهم ، فاتخذوا صالح العمل وطيب القول سفناً تمخر بهم إلى حلاوة الإيمان) (١) .

وقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴾[النحل : ٣٠] .

فضمن الله تعالى في هذه الآية لأهل الإيمان والعمل الصالح الجزاء في الدنيا بالحياة الطيبة ، وبالحسنى يوم القيامة ، ففازوا بنعيم الدنيا والآخرة ، وما هذا الجزاء إلا لأن طاعة الله تعالى عندهم أغلى من كل شيء وأولى من كل شيء .

وتحت عنوان « همها مرضاة الله » يقول الدكتور / محمد على الهاشمي:

(والمسلمة الصادقة تتطلّع دومًا في أعمالها إلى مرضاة الله عزّ وجلّ، وتزنها بهذا الميزان الدقيق ، فما رضي الله عنه فعلته ، وما لم يرض عنه أعرضت عنه واجتوته (٢)

وحينما يقع التعارض بين ما يرضي الله عز وجل ، وما يرضي الناس ، فإنها تختار مرضاة الله بلا تردد ولا تلعثم ولا جدال ، ولو أسخط الناس .

ذلك أنها تدرك بوعيها الإسلامي العميق وحسّها المرهف أن مرضاة الناس غاية لا تدرك ، وقد تودي بمبتغيها إلى سخط الله ، مستهديةً في هذا كله بهدي الرسول الحكيم القائل :

---

(١) حلاوة الإيمان في ضوء القرآن الكريم والسنة الصحيحة - ص (٦) .
(٢) أي كرهته .

« من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاهُ الله مؤونة الناسِ ، ومنِ التمس رِضاء الناس بسخط الله ، وكَلَهُ الله إلى الناس » [١]

بهذا الميزان الدقيق ، وهذا المقياس المحكم ، تتضح أمام المرأة المسلمة معالم الطريق القصد القويم ، فتعرف ما تأخذ وتعرف ما تدع ، ومقياسها الدائم الذي لا يخطيء مرضاة الله عز وجل وبذلك تختفي من حياة المرأة المسلمة المتناقضات المُضحكة المخجلة التي تقع فيها كثيرات من الشاردات عن هَدْي الله .

إنَّ اللواتي نراهُنّ في مصلاهنّ خاشعات ، ولكنهن يحتكمن في كثير من مواقفهن لأهواء نفوسهن ، فَيَجُرْنَ عَنِ الحق ، وتنطلق ألسنتهن في المجالس بالغيبة والنميمة وتجريح الناس ، ويكدن لمن لا يُحبْن كيداً ، ويتأولن عليهن تأولا للإيقاع بهن وإيذائهن ، أولئك يعانين خللاً في دينهن ، وضعفًا في عقيدتهن وقصوراً في تصورهن لحقيقة هذا الدين الكامل المتكامل الذي أنزله الله لصياغة الإنسان صياغة كاملة في شتى جوانب شخصيته ، بحيث تبدو تصرفاته الخاصة والعامة كلها مُرْضيَةً لله عز وجل ، مطابقة هديه ، مُحققة السلوك القويم الذي رسمه الإسلام للإنسان في هذه الحياة .

أمَّا اللواتي يُطعن الله في أمر ، ويعصينه في أمر ، ويزنَّ تصرفاتهن أو بعضها بميزان أهواء نفوسهن ، فهؤلاء يبدون أنصاف مسلمات ، وهذه هي الازدواجية التي ابتُليت بها المرأة المتخلفة عن هدي دينها وعقيدتها ، وهي من أخطر الأمراض السلوكية والخُلقية التي ابتلي بها الإنسان في هذا العصر)[٢]

(١) رواه الترمذي (٣٤/٤) في آخر أبواب الزهد ، وهو حديث حسن .
(٢) شخصية المرأة المسلمة - ص (٦٤ ، ٦٥) .

ثامنًا : أهمية دور الأب في تربية الأولاد :

وهذا يظهر من رعاية إبراهيم عليه السلام لولده إسماعيل ، ونصحه بما يراه خيراً له . فقد كان إبراهيم يرحل لابنه مرة وراء مرة ،ويطلع على أحواله وأخباره، ويوجهه لما فيه صلاحه .

لهذا (جاءت السنة المطهرة بالتوجيهات للآباء بأن يلتفتوا إلى أبنائهم ، وأن يحسنوا تعليمهم وتأديبهم ، وجاء التحذير لمن فرَّط في هذه المهمة العظيمة، وأهمل تربيته ، فقد قيل : « أول من يتعلق بالرجل زوجته وأولاده فيوقفونه بين يدي الله عز وجل فيقولون : يا ربنا خذ لنا حقنا من هذا الرجل ، فإنه لم يعلمنا أمور ديننا » .

لهذا كان واجبًا على الأب أن يكون عالمًا بأمور الدين محيطًا بالحلال والحرام ، وأساليب التربية ، ومبادئ الأخلاق وقواعد الشريعة ، فإن لم يكن عالمًا بها وجب عليه تعلم ما لا يعذر بجهله من أمور الدين ، وذلك ليعبد الله على علم ويقين ، وأن يعلم أولاده أمور دينهم ، وما أوجبه الله عليهم من الأوامر والنواهي ، والحلال والحرام ، فإن لم يفعل ذلك وأهمل ، فإن تربيته لأبنائه سوف تكون منحرفة ، وبالتالي ينحرف الأطفال ويكونون عبئًا على المجتمع إذا كبروا) [(١)] .

إن عدم وجود الأب في الأسرة ، أو وجوده مع عدم قيامه بواجباته التربوية كما يريدها الإسلام تجاه أولاده ، يعيق نمو الطفل الخلقي والفكري والجسمي لذا كان لابد أن يعي الأب أهمية دوره داخل الأسرة ، وبصفة خاصة دوره في تربية وتوجيه الأطفال إلى الطريق الحق ، وإبعادهم عن طريق الضلال .

إنه يجب على الأب أن يعرف دوره الرائد داخل الأسرة في تخريج الأجيال

---

(١) مسؤولية الأب المسلم ـ عدنان حسن صالح با حارث ـ ص (٨٢) بتصرف .

الصالحة المؤمنة المجاهدة ، وأن يدرك المفاهيم الصحيحة لتحقيق ذلك ويطبقها عمليًا ، وذلك استجابة لله عز وجل وطاعة لرسوله ﷺ ، فهو الراعي الأول داخل مملكة الأسرة المسلمة .

ويقول الإمام ابن القيم رحمه الله :

« إن الله سبحانه يسأل الوالد عن ولده يوم القيامة قبل أن يسأل الولد عن والده ، فإنه كما أن للأب على ابنه حقًا فللإبن على أبيه حق ، فمن أهمل تعليم ولده ما ينفعه وتركه سدى ، فقد أساء غاية الإساءة ، وأكثر الأولاد إنما جاء فسادهم من قِبل الآباء ، وإهمالهم لهم وترك تعليمهم فرائض الدين وسننه فأضاعوهم صغاراً فلم ينتفعوا بأنفسهم ، ولم ينفعهم آباءهم كباراً .

كما عاتب بعضهم ولده على العقوق فقال : « يا أبت لقد عققتني صغيرا فعققتك كبيراً ، وأضعتني وليداً فأضعتك شيخاً » [(١)]

(هل رأيت ـ أخي المربي الحبيب ـ ابنًا يسب أباه ، وآخر يفرح لغيابه ، وثالث يتمنى أن لو يموت فيستريح منه ويرثه ، هل وجدت من يحجر على أبيه، ومن يسرقه ؟ هل رأيت من يطرد أمه ومن يسخر منها أمام زملائه ؟ ومن يضحكهم عليها ؟ هل رأيت من طعن في السن وجاوز الأربعين والخمسين ولم يصل لله ركعة ، ولم يدخل بيت الله يوماً إلا ليقضي حاجته أو ليشرب ؟!!

إن هذه الأمثلة وغيرها الكثير لأبناء لم يجدوا من يربيهم ويرشدهم إلى الصواب لا إلى الخطأ . فهل تريدون أيها المربون أن يكون أولادكم مثل هؤلاء ؟!)[(٢)]

وانطلاقًا من قوله ﷺ : « إن الله سائل كل راع عما استرعاه ، أحفظ

---

(١) منهج التربية النبوية للطفل ـ محمد نور سويد .
(٢) فن تربية الأولاد ـ محمد سعيد مرسي ـ ص (١٠)

ذلك أم ضيع ؟ حتى يَسأل الرجل عن أهل بيته » [1] لابد أن يعي كل أب مسلم عاقل دوره الخطير في تربية أولاده وتوجيههم الوجهة الصحيحة نحو طريق الهدى والرشاد ، كيف لا وهو سيؤجر على كل عمل صالح يعمله أولاده ويدلهم عليه ، كما جاء في حديث مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « **من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئاً ، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً** »

تاسعاً : ثقة المسلمة بالله وتمام الاستسلام له عز وجل :

وهذا واضح من قول هاجر عليها السلام لما تركها إبراهيم عند البيت : «**إذن لا يضيعنا** » وفي رواية :« **رضيت بالله** » عندما قالت له :« **آلله أمرك بهذا؟**» ، وقال لها : « **نعم** » .

فلولا ثقة هاجر بربها عز وجل ما قبلت أن يتركها إبراهيم في هذا المكان القفر هي وولدها الصغير ، وهذا ما يجب أن تتعلمه وتعيه المسلمة من هذه القصة .

إن ضعف إيمان المسلمة بربها يحملها في أحيان كثيرة على الضجر والسخط وعدم التحمل ، لأنها لم تجعل في مقابل الابتلاء الله تعالى .

قال الشيخ عبد الله محمد الصديق الحسني رحمه الله : « العبرة من هذه القصة : أن الله تعالى يمتحن خواص عباده المقربين ، إمتحانات شديدة قاسية ، ليكثر أجرهم عنده ، ويزداد قربهم منه ، ويربيهم على خشونة العيش ، والبُعد

---

(١) رواه ابن حبان وغيره ، وصححه الحافظ في « الفتح » (الصحيحة برقم ١٦٣٦) .

عن الترف والتنعم ، وتنمو رجولتهم وتقوى نفوسهم.

وليعلموا أن نعيم الدنيا زائل فلا يلتفتون إليه ، وأن زخرفها حائل فينصرفون عنه ، ثم جعلهم بما امتحنهم به ورباهم عليه قدوة للمؤمنين ، ومناراً للسالكين.

فيا أيها المؤمن لا تضعف إن أصابتك شدة ، ولا تضجر إن مستك مصيبة ، بل اعتصم بإيمانك واثبت على يقينك ، واتل قول الله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ﴾[العنكبوت : ٢] واجعل قدوتك في إبراهيم الذي امتحن في نفسه ، وفي ولده ، فزاد إيمانه وعظم يقينه.

ويا أيها السالك إلى الله ، الطالب لرضاه ، شمر عن ساق الجد ، واترك الراحة والتنعم جانباً ، وقدم نفسك قرباناً لله تعالى كما قدمها إسماعيل قبلك .

اذبح شهواتها بمدية عزمك ، وأجهز على طمعها وتطلعها بسيف قناعتك، ثم اذهب إلى الله تعالى بصدق وإخلاص ، وقل إني ذاهب إلى ربي سيهدين، يكن معك بالتأييد والتمكين ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت : ٦٩] »[(١)] .

وهذه الثقة بالله وتمام التوكل على الله ظهر أيضًا في موقف أم موسى لما أمرها الله عز وجل أن تلقيه في اليم ، قال تعالى :﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلا تَخَافِي وَلا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [القصص : ٧] فأم موسى سلّمت أمرها لله تسليمًا تامًا وأطاعت أمر ربها فيما تكره ، وهو إلقاء وليدها في البحر ، وأصبح فؤادها فارغًا من العقل لما دهمها من فرط الجزع والخوف على وليدها لاسيما لما بلغها وقوعه في يد فرعون ، وكادت تبدي بأمره وقصته وتعترف أنه ولدها ،

(١) سمير الصالحين ـ ص (١٨ ، ١٩) .

لكن الله تعالى ربط على قلبها وألهمها الصبر وجعلها من المؤمنين المصدقين لوعد الله تعالى .

ويظهر لنا في هذا المشهد (لطف الله بأم موسى بذلك الإلهام الذي به سلَّم ابنها ، ثم تلك البشارة من الله برده إليها ، التي لولاها لقضى عليها الحزن على ولدها ، ثم ردَّه إليها بإلجائه إليها قدراً بتحريم المراضع عليه ، وبذلك وغيره يعلم أن ألطاف الله على أوليائه لا تتصورها العقول ، ولا تعبر عنها العبارات .

وتأمل موقع هذه البشارة وأنه أتاها ابنها ترضعه جهراً ، وتسمى أمه شرعًا وقدراً ، وبذلك اطمأن قلبها وازداد إيمانًا ، وفي هذا مصداق لقول الله تعالى : ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [البقرة : ٢١٦] فلا أكره لأم موسى من وقوع ابنها بيد آل فرعون ، ومع ذلك ظهرت عواقبه الحميدة وآثاره الطيبة) (١) .

فهلا تعلمت المرأة المسلمة من موقف هاجر عليها السلام وموقف أم موسى عليها السلام كيف تُسلم لله تعالى في كل أمورها ثقة بالله عز وجل ، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وأن الخير في التسليم التام لما يقدره الله عز وجل حتى وإن لم تظهر بوادر هذا الخير في أوله ، لكنها إن شاء الله ستظهر وإن استغرق الأمر بعض الوقت .

عاشراً : فضل زمزم :

١ـ غسل قلب النبي ﷺ بماء زمزم :

عن أنس بن مالك : كان أبو ذر رضي الله عنه يحدث أن رسول الله ﷺ قال : « **فُرج سقفي وأنا بمكة ، فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدري ، ثم غسله بماء**

(١) خلاصة تفسير اللطيف المنان في تفسير القرآن (ص١٣٠) .

زمزم ، ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيماناً ، فأفرغها في صدري ثم أطبقه ، ثم أخذ بيدي فعرج إلى السماء الدنيا . قال جبريل لخازن السماء الدنيا : افتح .قال : من هذا ؟ قال : جبريل »[١]

قال ابن أبي جمرة رحمه الله : وإنما لم يغسل بماء الجنة ، لما اجتمع في ماء زمزم من كون أصل مائها من الجنة ، ثم استقر في الأرض فأريد بذلك بقاء بركة النبي ﷺ في الأرض .

٢ ـ خير ماء على وجه الأرض :

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ : « خير ماء على وجه الأرض ماء زمزم ، فيه طعام من الطعم ، وشفاء من السقم ... »[٢] .

٣ـ ماء زمزم لما شرب له :

لحديث جابر رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال : « ماء زمزم لما شرب له »[٣] .

قال النووي رحمه الله : معناه أنه من شربه لحاجة نالها ، وقد جرّبه العلماء والصالحون لحاجات أخروية ودنيوية ، فنالوها بحمد الله وفضله .

قال الحافظ بن حجر ، شربه الحاكم أبو عبد الله لحسن التصنيف ولغير ذلك ، فصار أحسن أهل عصره تصنيفاً .

فمن شرب ماء زمزم ليُشفى من مرضه أو لشرح صدره الضيق ، أو لقضاء حاجة ، أو لكشف كربة ، أو لاغتنام طاعة وفّى الله له بذلك إن شاء الله .

---

(١) رواه البخاري واللفظ له ، ومسلم وأحمد والنووي في شرح السنة .
(٢) رواه الطبراني وابن حبان وغيرهما ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٣١٧) .
(٣) رواه أحمد وابن ماجة وغيرهما ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٥٣٧٨) .

٤ ـ ماء زمزم طعام طعم :

لحديث ابن عباس السابق : « زمزم طعام طعم ، وشفاء سُقم » .

وعنه ﷺ قال :« كنَّا نسميها شباعة - يعني زمزم - وكنا نجدها نعم العون على العيال » .

يقول ابن القيم رحمه الله : « شاهدت من يتغذي به الأيام ذوات العدد ، قريبًا من نصف شهر أو أكثر ، ولا يجد جوعًا ، ويطوف مع الناس كأحدهم ، فأخبرني أنه ربما بقي عليه أربعين يومًا ، وكان له قوة يجامع بها أهله ويصوم ويطوف مرارًا » (١) .

٥ ـ زمزم شفاء سُقْم :

عن عائشة ﷺ قالت : «كان رسول الله ﷺ يحمل زمزم في الأداوي والقِرب، وكان يصب على المرضى ويسقيهم » (٢) .

قال وهب بن منبه : والذي نفس وهب بيده ، لا يعمد إليها أحد فيشرب منها حتى يتضلع إلا نزعت داء وأحدثت له شفاء .

يقول ابن القيم رحمه الله : جرَّبت أنا وغيري الاستشفاء بماء زمزم أمورًا عجيبة ، واستشفينا به من عدة أمراض ، فبرأت بإذن الله .

٦ ـ ماء زمزم يُتحف به الضيفان ، ويحمله الركبان :

روى مجاهد عن ابن عباس ﷺ « كان إذا نزل به ضيف أتحفه من ماء زمزم، ولا أطعم قومًا إلا سقاهم من ماء زمزم » (٣) .

---

(١) زاد المعاد (٤/٣٩٤) .

(٢) أخرجه الترمذي والحاكم وغيرهما وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (٨٨١) .

(٣) رواه الطبراني عن أبي هريرة ، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٤٤) .

وقال مجاهد :

كانوا يستحبون إذا ودَّعوا البيت أن يأتوا زمزم فيشربوا منها .

يا طيب زمزم مطعمًا أومشربًا تهفو لورد نعيمه الأرواحُ
جبريل أطلقه بهمز جناحه فإذا به مسترسلاً ينداحِ
الله أودعه عناصر ركبت فيه يحار بكنهها الشراحِ
فتضلعوا من مائه وادعوا فقد جاءت أحاديث بذاك صحاحِ
من قال زمزم قدست أسرارها عند الإله فما عليه جناح

موقف زوجة شريح القاضي

ليلة زفافها

زوجة شريح القاضي ليلة زفافها

رُوي (أن شريحًا القاضي قابل الشعبي يومًا ، فسأله الشعبي عن حاله في بيته ، فقال له : « من عشرين عامًا لم أر ما يغضبني من أهلي » ، قال له: « وكيف ذلك ؟ » قال شريح : « من أول ليلة دخلت على امرأتي ، رأيت فيها حسنًا فاتنًا ، وجمالاً نادرًا ، قلت في نفسي : فلأطّهر وأصلي ركعتين شكرًا لله، فلما سلّمتُ وجدتُ زوجتي تصلي بصلاتي وتسلم بسلامي ، فلما خلا البيت من الأصحاب والأصدقاء ، قمت إليها ، فمددت يدي نحوها » ، فقالت : « على رسلك يا أبا أمية ، كما أنت » ، ثم قالت : « الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأصلي على محمد وآله ، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك ، فبين لي ما تحب فآتيه ، وما تكره فأتركه » ، وقالت:« إنه كان في قومك من تتزوجه من نسائكم ، وفي قومي من الرجال من هو كفء لي ، ولكن إذا قضى الله أمرًا كان مفعولاً ، وقد ملكت فاصنع ما أمرك به الله إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، أقول قولي هذا ، وأستغفر الله لي ولك ..! »

قال شريح : « فأحوجتني – والله يا شعبي – إلى الخطبة في ذلك الموضع، فقلت : الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأصلي على النبي وآله وأسلم ، وبعد : فإنكِ قلت كلامًا إن ثبتّ عليه يكن ذلك حظك ، وإن تدعيه يكن حجة عليك ، أحب كذا وكذا ، وأكره كذا وكذا ، وما رأيتِ من حسنة فانشريها وما رأيت من سيئة فاستريها »

فقالت : « كيف محبتك لزيارة أهلي ؟» قلت :« ما أحب أن يملّني

أصهاري » ، فقالت : « فمن تحب من جيرانك أن يدخل دارك فآذن له ، ومن تكره فأكره ؟» ، قلت :« بنو فلان قوم صالحون ، وبنو فلان قوم سوء » ، قال شريح : « فبت معها بأنعم ليلة ، وعشت معها حولاً لا أرى إلا ما أحب ، فلما كان رأس الحول جئت من مجلس القضاء ، فإذا بفلانة في البيت ، قلت : « من هي ؟» قالوا : « خَتَنَتُك » - أي أم زوجك - فالتفتت إلي ، وسألتني : « كيف رأيت زوجتك ؟ » قلت : « خير زوجة » ، قالت : « يا أبا أمية إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين : إذا ولدت غلامًا ، أو حظيت عند زوجها ، فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شرًا من المرأة المدللة ، فأدِّب ما شئت أن تؤدب ، وهذب ما شئت أن تهذب » فمكثت معي عشرين عامًا لم أعقب عليها في شيء إلا مرة ، وكنت لها ظالمًا) (١) .

---

(١) انظر : « أحكام النساء » لابن الجوزي ص (١٣٤ _ ١٣٥)، و« أحكام القرآن » لابن العربي (٤١٧/١).

الدروس والعبر

أولاً : صفات الزوجة الصالحة : (١)

* إن أهم صفة في الزوجة يجب على الرجل الحرص عليها والتمسك بها أشد الاستمساك : الدين . ولا أعني بالدين المظهر دون الجوهر ، وإنما السلوك والعمل .

أعني بالدين أن تعيش المسلمة دينها ليل نهار لأنها تعتبره قضية حياة ، وتعتبر نفسها صاحبة رسالة ،فلا تهنأ ولا تهدأ إلا بالالتزام التام بالدين في نفسها وفي بيتها ومع الناس ، ثم بالدعوة إلى الله عز وجل .

إن المرأة التي لا تقف مع زوجها وقت الشدة ليست بالزوجة الديِّنة الصالحة.

والتي تهتك ستره وتفضحه وتنشر عيوبه مع أول ابتلاء ليست بالزوجة الديِّنة الصالحة .

والتي تقف مع الناس ضد زوجها ، لدينه وصلاحه ليست بالزوجة الديِّنة الصالحة.

والتي لا تعرف لتربية أولادها منهجًا مستقيمًا على الدين ليست بالزوجة الديِّنة الصالحة .

والتي لا تؤدي حقوق زوجها إلا على هواها ومزاجها ليست بالزوجة الديِّنة الصالحة .

---

(١) للمؤلف كتاب بعنوان « هذه هي زوجتي » فليراجع لأهميته .

والتي لا تعرف للزوج حقه وقدره ومكانته سلوكًا وواقعًا ومودة ورحمة ليست بالزوجة الديِّنة الصالحة .

روى الإمام مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **تنكح المرأة لأربع : لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين تربت يداك** » .

قال الغزالي رحمه الله : «وليس أمره بمراعاة الدين نهيًا عن مراعاة الجمال ولا أمرًا بالإضراب عنه ، وإنما هو نهي عن مراعاته مجردًا عن الدين ، فإن الجمال في غالب الأمر يُرغب الجاهل في النكاح دون الالتفات إلى الدين ولا نظر إليه فوقع النهي عن هذا ، وأمر ألا يغفل النظر فيه »(١) .

وعلى ذلك فذات دين جميلة ، أفضل من ذات دين فقط ، وذات دين جميلة وغنية أفضل من ذات دين فقط وهكذا.

قال المناوي رحمه الله : « **ولدينها** » ختم به إشارة إلى أنها وإن كانت تنكح لتلك الأغراض لكن اللائق الضرب عنها صفحًا وجعلها تبعًا ، وجعل الدين هو المقصود بالذات .

فمن ثم قال : « **فاظفر بذات الدين** » أي اخترها وقربها من بين النساء ولا تنظر إلى غير ذلك . « **تربت يداك** » افتقرتا والتصقتا بالأرض من شدة الفقر إن لم تفعل .

قال القاضي : عادة الناس أن يرغبوا في النساء ويختاروها لأربع خصال عدها ، واللائق بذوي المروءات وأرباب الديانات أن يكون الدين مطمح نظرهم فيما يأتون ويذرون ، لاسيما فيما يدوم أمره ويعظم خطره .

فلذلك حث المصطفى ﷺ بآكد وجه وأبلغه ، فأمر بالظفر بذات الدين

---

(١) الإحياء .

الذي هو غاية البغية ومنتهى الاختيار والطلب الدال على تضمن المطلوب لنعمة عظيمة وفائدة جليلة .

وقوله : « **تربت يداك** » : أصله دعاء لكن يستعمل لمعان أخرى كالمعاتبة والإنكار والتعجب وتعظيم الأمر والحث على الشيء ، وهو المراد أيضاً هنا ».[1]

*أما الصفة الثانية التي تلي الدين : فهي المرأة الودود الولود

روى أبو داود والنسائي عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال : « **تزوجوا الولود فإني مكاثرٌ بكم الأمم** »[2] .

وروى الطبراني والدارقطني أن رسول الله ﷺ قال : « **ألا أخبركم بنسائكم من أهل الجنة : الودود الولود العؤد على زوجها ، التي إذا غضبت جاءت حتى تضع يدها في يد زوجها وتقول لا أذوق غُمضاً حتى ترضى** »[3] .

وعند النسائي بلفظ : « **ونساؤكم من أهل الجنة الودود الولود العؤد على زوجها ، التي إذا غضب جاءت حتى تضع يدها في يد زوجها وتقول : لا أذوق غُمضاً حتى ترضى** »[4] .

وتأتي سُعدى لتضرب المثل والقدوة الحسنة لنساء غافلات عنيدات قلوبهن متحجرة .

دخلت سُعدى على زوجها طلحة بن عبيد الله فرأت على مُحياه كآبة هَمٍّ لم تعرف سببها ، وخشيت أن تكون قد قصرت في حق ، أو فرطت في واجب، فبادرت قائلة : « مالك ، لعلك رابك منا شيء فنعتبك »[5] . قال : « لا ،

---

(١) فيض القدير (٣/٢٧١) .

(٢) صحيح الجامع (٢٩٤٠) .

(٣) حسنه الألباني في صحيح الجامع (٢٦٥٤) .

(٤) قال الألباني : للحديث شواهد يتقوى بها (السلسلة الصحيحة برقم ٢٨٧) .

(٥) أي لعلي قصرت في حقك فأعتذر عن تقصيري وأعود عن إساءتي .

ولنعم حليلة المرء المسلم أنتِ ، ولكن اجتمع عندي مال ولا أدري كيف أصنع به ؟ » . قالت : « وما يغمك منه ، ادع قومك فاقسمه بينهم » . قال : « يا غلام عليَّ بقومي ، فقسم أربعمائة ألف » .

المرأة الودود أي كثيرة التودد إلى زوجها ، المُحبة له ، فهي تفعل كل ما من شأنه الاستيلاء على قلب زوجها ، ولا يخرج من لسانها إلا كل كلمة طيبة تملك بها شغاف قلب زوجها .

ومن مظاهر هذا الود : أنها لا تدع زوجها أبدًا في غم أو هم سواءَ كانت ظالمة أو مظلومة حتى تسترضيه ، وتذهب عن وجهه كآبات النكد والحزن ، بخلاف الزوجة الجافة المتكبرة التي تأكل وتشرب وتنام وتروح وتجئ وتدخل وتخرج ، ولا تبالي بزوجها حتى يعتذر هو إن كان مخطئًا ، أو يبدأ بالكلام إن كانت مخطئة .

إن المرأة الودود نعمة في بيت الرجل ، من رزقها فكأنما ملك الدنيا وما فيها ، والمرأة النكدة نقمة في بيت الرجل ، من رزقها فالله المستعان .

وكذلك المرأة الولود فإن لها مكانة في قلب الرجل - في الغالب - عن المرأة التي لا تلد ولا شك ، لذا فإن ارتباط هاتين الصفتين معًا وهما « الودود الولود » هو ارتباط قلبين في الحقيقة على السعادة والهناء داخل البيت .

* أما الصفة الثالثة : المطيعة لربها ولزوجها

والصفة الرابعة : الحافظة لغيب زوجها

وهاتان الصفتان ذكرهما الله عز وجل في قوله : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ [النساء : ٣٤] .

قال الألوسي رحمه الله : « والمراد ﴿فَالصَّالِحَاتُ﴾ منهن المطيعات لله تعالى ولأزواجهن .

﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ أي يحفظن أنفسهن وفروجهن في حالة غيبة أزواجهن .

وقال الثوري وقتادة : أو يحفظن في غيبة الأزواج ما يجب حفظه في النفس والمال .

وقيل : المراد حافظات لأسرار أزواجهن ، أي ما يقع بينهم وبينهن في الخلوة » (١) .

وقال ابن كثير رحمه الله : ﴿الصَّالِحَاتُ﴾: أي من النساء ﴿قَانِتَاتٌ﴾ قال ابن عباس وغير واحد : يعني مطيعات لأزواجهن ﴿حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ﴾ وقال السدي وغيره : أي تحفظ زوجها في غيبته في نفسها وماله . وقوله : ﴿بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ أي : المحفوظ من حفظه الله (٢) .

وقال صاحب الظلال : ﴿فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ﴾ .

[فمن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفتها الملازمة لها ، بحكم إيمانها وصلاحها ، أن تكون .. قانتة .. مطيعة . والقنوت : الطاعة عن إرادة وتوجه ورغبة ومحبة ، لا عن قسر وإرغام وتفلت ومعاظلة ! ومن ثمَّ قال : قانتات . ولم يقل طائعات . لأن مدلول اللفظ الأول نفسي ، وظلاله رخية ندية .. وهذاهو الذي يليق بالسكن والمودة والستر والصيانة بين شطري النفس الواحدة . في المحضن الذي يرعى الناشئة ، ويطبعهم بجوه وأنفاسه وظلاله وإيقاعاته !

ومن طبيعة المؤمنة الصالحة ، ومن صفتها الملازمة لها ،بحكم إيمانها

---

(١) روح المعاني (٣٥/٤، ٣٦)

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢٩٣/٢) تحقيق سامي بن محمد السلامة .

وصلاحها كذلك ، أن تكون حافظة لحرمة الرباط المقدس بينها وبين زوجها في غيبته ـ وبالأولى في حضوره ـ فلا تبيح من نفسها في نظرة أو نبرة ـ بله العرض والحرمة ـ ما لا يباح إلا له هو بحكم أنه الشطر الآخر للنفس الواحدة .

وما لا يباح ، لا تقرره هي ، ولا يقرره هو ، إنما يقرره الله سبحانه : ﴿ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ .

فليس الأمر أمر رضاء الزوج عن أن تبيح زوجته من نفسها ـ في غيبته أو في حضوره ـ ما لا يغضب هو له أو ما يمليه عليه وعليها المجتمع ! إذا انحرف المجتمع عن منهج الله ...

إن هنالك حكماً واحداً في حدود هذا الحفظ ؛ فعليها أن تحفظ نفسها ﴿ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾.. والتعبير القرآني لا يقول هذا بصيغة الأمر . بل بما هو أعمق وأشد توكيداً من الأمر . إنه يقول : إن هذا الحفظ بما حفظ الله من طبيعة الصالحات ، ومن مقتضى صلاحهن !] [١] .

كيف تحفظين غيبة زوجك ؟ .

(إن حفظ الزوج في غيبته واجب شرعي ، وتكليف رباني ، وليس ندباً وفضلاً ، ويجدر بنا أن نتناول كيفية حفظ الزوجة لزوجها في غيبته لأهميته وإجمال ذلك فيما يلي :

حفظه في أسراره ، في أولاده ، في أمواله ، في نفسها ، في أهله وأقاربه ..

* **فيجب على المرأة المسلمة أن تحافظ على أسرار زوجها** ، وما يحدث بينهما مما لا ينبغي إظهاره وإشاعته كتفاصيل الجماع والمشاكل

---

(١) في ظلال القرآن (٢/٦٥٢) .

والخلافات ... ومما ينبغي الحذر منه تحديث النساء خفية أو صراحة ، مباشرة أو غير مباشرة .. بأي سر من الأسرار ، سواء كن من القريبات أوالبعيدات .. فإن ذلك سينقل لا محالة .

فما أكثر أحاديث النساء !! .

وما أضعفهن عن تحمل الأسرار والمحافظة عليها !! .

وما أسرعهن في نقلها والزيادة عليها !! .

فلتحذر الأخت المسلمة من ذلك ، حتى لا توغر صدر زوجها ، وإن سئلت فلا تجب ، وإن في المعاريض لمندوحة ..

*** وتحفظه فى أولاده :**

بحسن التربية والتعليم ، والتأديب ، ورعاية صحتهم .. إلى غير ذلك ، كما عليها أن ترعى أولاد زوجها من غيرها فلا تقس عليهم وتحرمهم العطف والرعاية .. ولتحذر الزوجات من المبالغة في تدليل الأولاد ، وترك الحبل لهم على الغارب .. بحجة أن أباهم غائب فهم محرومون من عطف الأبوة فلا ينبغي إغضابهم والحيلولة دون طلبهم فتلبي طلبات الفساد ، وتهمل التوجيه والإرشاد فيفسد بذلك الأولاد ، وتلك خيانة كبرى ، لها وقعها الأليم على نفس الزوج المسلم .

* **كما يجب أن تحفظه فى ماله** سواء كان نقوداً ، أو أثاثاً ، أو أي ممتلكات ، فلا تتصرف في شيء إلا بإذنه ورضاه ، ولا تبذر ولا تسرف ، ولا تنفق الأموال الطائلة في التزين والتجمل والكماليات المرهقة .

إن عليها أن تكون رشيدة في إنفاقها في حضرته ، وأشد رشداً في غيبته .

* كما يجب أن تحفظه في نفسها وفي عرضها ..

فلا تخرج إلا بإذنه ، وإن خرجت فلتحافظ غاية المحافظة على الالتزام بآداب الإسلام في الخروج فلا تتبرج ، ولا تتزين ولا تتعطر ... وغير ذلك مما يجذب الأنظار .. ولتبتعد غاية البعد عن ارتياد مواطن الريب والفساد والاختلاط بالأجانب ، ومجالسة الفسقة من النساء والرجال ..

ولا تأذن لأحد في دخول البيت سواء كان من الأجانب أو الأقارب إذا كره ذلك ، ولا تسمح لأجنبي أن يخلو بها ..

*** كما يجب أن تحفظه فى أهله وأقاربه . .**

فلا تسيئ إليهم ، ولا تقاطعهم ، وتثير الشغب والمشاكل والخلافات والمنغصات بالحقد والحسد ، والغيرة والعصيان .. وغير ذلك .

ومن أعظم ما تحفظ به زوجها في ذلك أن تصبر على أي أذى يقع ، أو مشكلات تحدث ، أو ضرر يلحق .. حتى يرجع زوجها فتخبره بحكمة وهدوء ليعالج الأمور بحكمة وهدوء فإن من أعظم ما ينغص على الزوج حياته ومعيشته، ويؤرقه في غربته ، أن يسمع بخلافات أمه وأخواته وسائر أقاربه مع زوجته ..

فعلى الزوجة أن تكون وفية كريمة ، عاقلة حكيمة ، فتصبر وتحتسب ، ولا تتهور فتكيل الصاع بالصاعين والبادي أظلم ...، وتهجر البيت إلى أهلها .. وتبدأ سهام الطعن تتراشق ، وقذائف الفضائح تنطلق ...، ونبال الغمز واللمز والهمز والعيب تتبادل ...، والزوج في غيبته لا يدري، وعندما يدري يتملكه الشقاء ، وتستبد به الهموم والأحزان ، وقد يتصرف تصرفات لا تحمد عقباها في حق الزوجة ..

وأخيراً أقول : إن حفظ الغيب من معالم احترام المرء لإنسانيته ، وبيان أنه إنسان لا حيوان تردعه العصا ، ويؤدبه السوط ، إنه إنسان يراقب ربه في السر والعلانية ، في الغيب والشهادة .. فيرعى حقوق الغائب والحاضر والغائب أكثر وأشد .

وتلك هي التقوى .

فاحرصي أيتها الزوجة على التقوى تَسْعَدي في نفسك وتُسْعِدي زوجك) [١] .

ثانيًا : طلب رضا الزوج .. طريق المرأة إلي الجنة :

إن المرأة الصالحة هي التي تستخدم زوجها كالدَّرَج تصعد به إلى الجنة ، وهي الحريصة على طلب رضاه ، وهي المرأة التي لا ترضى بغير الجنة بديلاً .

ماذا قالت زوجة شريح القاضي عندما مدَّ يده نحوها بعد الانتهاء من الصلاة ؟ « الحمد لله أحمده وأستعينه ، وأصلي على محمد وآله ، إني امرأة غريبة لا علم لي بأخلاقك ، فبين لي ما تحب فآتيه ، وما تكره فأتركه »

وهذا الأدب والخلق والسلوك يجب أن يكون شعار المرأة مع زوجها طيلة حياتهما الزوجية ، فتأتي كل ما يحبه الزوج ، وتترك كل ما يكرهه من الأقوال أو الأعمال ، وسواء ذلك تكرهه هي أو لا تكرهه لعظم حق زوجها عليها .

إن الزوجة العاقلة الصالحة حينما تسلك طريق مرضاة الزوج ، فإنها في الحقيقة تسلك الطريق الموصل بحق إلى الجنة ، ما دامت تطلب مرضاته في غير معصية وذلك انطلاقًا من قوله ﷺ لعمة حُصين بن محصن : « فانظري

(١) كيف تسعدين زوجك ـ محمد عبد الحليم حامد ـ ص (٧٨ ـ ٨١)

أين أنت منه ، فإنما هو جنتك ونارك »[١] .

فمهمة الزوجة إذن أن تسد ثغرتها حتى لا تأتي عواصف الهم والنكد من ناحيتها ، فإن هبت العواصف لا محالة من أي ناحية ، فعليها السعي لإرضاء زوجها بغض النظر أيهما أخطأ ، فإن لعاطفتها الساحرة آثاراً طيبة في تهدأة العواصف وتسكينها .

إذن كيف ترضين زوجك ؟

* إذا كان الخطأ من ناحيتك أيتها الزوجة ، فعليك أن تبادري بالاعتذار والتأسف وطلب السماح ، بأسلوب يشعر بالندم ويعبر عن الألم .. والأسلوب في غاية الأهمية ، لأن كلمة أنا آسفة ، وحقك عليَّ قد تقذف من الفم كأنها حجارة .

ونحن نريدها نسمة لطيفة تبرد حرارة الغضب المخيفة .

* وعليك أيضاً باللمسات الحانية ، واللمسات الحسية والمعنوية ، فقد أشار الحديث النبوي إلى ذلك :

« **هذه يدي في يدك ، لا أكتحل بغمض حتى ترضى** » فلمسات اليد الناعمة ، وقبلات الفم الحانية .. لها آثار سحرية في إطفاء جذوة الغضب المتأججة .. كما أن عبارات المشاركة الوجدانية ، وإظهار التأثر البالغ ، والتألم الشديد من أجل غضب الزوج يفثأ هذا الغضب حتى يذهب .

* وإذا كان هو المخطئ ومع ذلك غضب ، فاصبري واسكتي ولا تجادلي ، بل تنازلي عن حقك لتمتصي غضبه حتى يهدأ ، وفي الهدوء يكون التفاهم سهلاً .

---

(١) رواه أحمد والنسائي ، وقال الألباني : إسناده صحيح (آداب الزفاف ص ٢٨٥) .

* وإذا كان غضبه لسبب خارجي غير ظاهر ، فالتمسي له الأعذار فإن ذلك من شيم الكرام، فقد يكون متعباً مجهداً ، أو عوتب وعوقب في العمل بحق أو غير حق من مسؤوله بأسلوب قاسٍ مهين .. أو حلت به مصائب ، وتفاقمت لديه مشاكل عجز عن تحملها وحلها .. فإذا وصل البيت انفجر غضبه ، فواجبك في هذه الحال الهدوء والصبر ، وإزالة ما أثاره ولو كان تافهاً .. دون نقد ولا تكثري من الأسئلة حينئذ :

لماذا أنت غضبان ؟ هل فعلتُ شيئًا أغضبك ؟ هل هذا الأمر البسيط يغضبك هكذا ؟

لا ، لابد أن تخبرني ، فهناك شيء تخفيه عني .

بل يكفيك حينئذ نظرات الحنان ،وعبارات التهدئة الخفيفة القليلة . حتى إذا هدأ بعد فترة ، أو جاء موعد النوم تعرفي بحكمة على أحداثه اليومية في عمله ، أو أخبار أسرته ، أو موضوعات كانت تشغله .. إلى غير ذلك .

حتى إذا عرفت السبب هونت عليه ، وسليته بما يخففه ويذهبه .

بذلك أيتها الزوجة ترضين ربك ، وتسعدين زوجك ، وتعذرين إلى الله ، وتحمين حياتكما من كدر عواصف الغضب ..

وأسوق إليك هذا الحديث النبوي العظيم ليشجعك على الخير .

عن معاذ بن جبل ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يحل لامرأة تؤمن بالله أن تأذن لأحد في بيت زوجها وهو كاره ،ولا تخرج وهو كاره ، ولا تطيع فيه أحداً ، ولا تعزل فراشه ولا تضرُّ به ، فإن كان هو أظلم فلتأته حتى ترضيه ، فإن قبل منها فبها ونعمت وقبل الله عذرها ، وأفلج**[١]

(١) أفلج : أظهر ونصر .

حجتها ، ولا إثم عليها ، وإن هو لم يرض فقد أبلغت عند الله عذرها »[١].

ذلك هو واجب الزوجة المسلمة تجاه زوجها إذا غضب على أي وجه كان، فلتحرص الزوجة عليه ولتحافظ على سلامة الأسرة ، ودوام سعادتها ..

ولتحذر كل الحذر من الكبر والعناد ، والجدل ،والمراء ، واستغلال لين شخصية الزوج إن كان ضعيفاً ، أو استغلال فرط صلاحه ودينه ..

وعليها بالاعتذار عند خطئها ، والتماس الأعذار لزوجها فإن ذلك من شيم الكرام ، وأسباب دوام الود والألفة والوئام)[٢] .

ثالثًا : المرأة تُذَكِر زوجها بالله :

هل تنصح المرأة زوجها؟ وهل توصيه بتقوى الله تعالى؟ وهل تذكره بالله ؟

نعم .. إن المرأة الصالحة تفعل كل ذلك بأدب جم وخلق رفيع وتواضع .

قالت زوجة شريح القاضي له : « إنه كان في قومك من تتزوجه من نسائكم ، ومن قومي من الرجال من هو كفء لي ، ولكن إذا قضى الله أمراً كان مفعولاً ، وقد ملكت فاصنع ما أمرك الله به ، إمساك بمعروف ، أو تسريح بإحسان » .

تعني أنها لم تكن شيئًا مهملاً ، ولكنه قدر الله عز وجل الذي يقول للشيء كن فيكون ، وما دمت قد ملكتني بأغلظ ميثاق وهو عقد النكاح ، فاتق الله وسر في طريق الله عز وجل ولا تظلم ، فإما معاشرة بمعروف ، وإما تسريح ولكنه بإحسان .

قال تعالى : ﴿ وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ فَإِن كَرِهْتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا

(١) رواه الحاكم .
(٢) كيف تسعدين زوجك - ص (٧٣ _ ٧٥)

شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾[النساء : ١٩] .

فأمر الله عز وجل الرجال بمعاشرة زوجاتهم بكل ما هو معروف عُرْفًا وشرعًا.

ولذلك فقد أوصى النبي ﷺ بالنساء خيراً ، فقال : « **استوصوا بالنساء خيراً ، فإن المرأة خلقت من ضلع ، وإن أعوج ما في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج فاستوصوا بالنساء** » (١) .

فالمرأة إذا أراد زوجها إقامتها على الجادة وعدم اعوجاجها ، أدى ذلك إلى الشقاق والفراق وهو كسرها ، وإن صبر على سوء حالها وضعفها ونحو ذلك من عوجها دام الأمر واستمرت العشرة ، وهذا لا يكون إلا بالصبر عليها واحتمالها لأنها خلقت من ضلع ، فينبغي عليه أن يستمتع بها على عوجها لقضاء الوطر ، وطلب الولد الصالح ، والإعفاف .

وروى مسلم عن أبي هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ : « **لا يَفْرَكَ مؤمن مؤمنة إن كره منها خُلُقًا رضي منها آخر أو قال غيره** » .

فلا يصح للمؤمن أن يبغض زوجته على كل حالها ، فهي ليست شراً محضاً ، بل إن كره منها مثلاً سوء الخلق رضي منها العفاف مثلاً ، وليعاشرها على ذلك فيغفر سيئاتها لحسناتها ويتغاضى عما يكره بما يحب .

إن دور الزوجة المسلمة داخل البيت مع زوجها ليس بالأمر الهين مهما كان زوجها على علم ، فكل ابن آدم خطاء ، وتعترينا بين الفينة والأخرى ربما فترات ضعف ، نريد من يقف بجوارنا ويأخذ بأيدينا .

لذلك فإن الزوجة المؤمنة عندما ترى من زوجها تكاسلاً في طاعة كتأخره

---

(١) متفق عليه .

عن صلاة الفجر ، أو عدم حرصه على قيام الليل الذي تعود عليه ونحو ذلك من الطاعات تذكره وترغبه وتُعْلِمُه أنه قدوتها ، تقوى بقوته وتضعف بضعفه ، وتتكاسل بتكاسله .

إن وجدت سوءاً في عشرته لها ، فقد بدأ يسب ويشتم ، فلتنتهز فرصة يكون باله فيها هادئاً فترغبه في حسن الخلق ، وكيف كان النبي ﷺ حليماً مع زوجاته ، يصبر عليهن ، ويتجاوز عن هفواتهن ، ويقابل بعض تصرفاتهن بابتسامة ورد فعل جميل ، ولا تنسى أن تثني عليه ،وتفهمه أن ما فعله ربما لضيق صدره ، أو لغلبة الشيطان ، أو بسبب مشكلة هنا أو هناك وهكذا .

إن الزوج الصالح يحب أن يسمع من زوجته ـ بأدب وتواضع ـ تذكرة إن غفل ، ونصيحة إن سها ، وتشجيعاً إن كسل ، فالمرء على دين خليله ، وهل هناك أقرب من الزوجة لزوجها ومن الزوج لزوجته ؟ .

إن المرأة الصالحة التي تذكر زوجها بالله ، بطاعته ، وبتقواه ، وبخشيته ، إنما هي زوجة مشغولة بالله والدار الآخرة ، ونِعْمَ هي .

رابعاً : من فقه الزوجة الصالحة :

من كمال عقل الزوجة الصالحة وعلمها وفقهها في الدين سؤالها لزوجها عما يحب ويكره ، وهذا ما فعلته زوجة شريح القاضي بقولها : « كيف محبتك لزيارة أهلي ؟ ... فمن تحب من جيرانك أن يدخل بيتك فآذن له ، ومن تكره فأكره ؟»

وهذا حق من حقوق الزوج على زوجته وهو ألا تدخل بيته أحداً إلا بإذنه ويستوي في ذلك المحارم وغيرهم من النساء أو الرجال .

وبعض النساء – للأسف – تتهاون في هذا الحق ، فتدخل بيتها من لا يأذن زوجها بدخوله ، وهذا حرام عليها لقوله ﷺ : « **ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح** »[(١)] .

قال النووي رحمه الله : « والمختار أن معناه أن لا يأذنَّ لأحد تكرهونه في دخول بيوتكم ، والجلوس في منازلكم ، سواء كان المأذون له رجلاً أجنبياً ، أو امرأة أو أحداً من محارم الزوجة ، فالنهي يتناول جميع ذلك .

وهذا حكم المسألة عند الفقهاء ، وأنها لا يحل لها أن تأذن لرجل أو امرأة ولا محرم ولا غيره في دخول منزل الزوج إلاَّ من علمت أو ظنت أن الزوج لا يكرهه ، لأن الأصل تحريم دخول منزل الإنسان حتى يوجد الإذن في ذلك منه أو ممن أذن له في الإذن في ذلك ، أو عرف رضاه باطراد العرف بذلك ونحوه.

ومتى يحصل الشك في الرضا ولم يترجَّح شيء ، ولا توجد قرينة ، لا يحل الدخول ولا الإذن والله أعلم » [(٢)] .

وروى البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **لا يحل للمرأة أن تصوم وزوجها شاهد إلا بإذنه ، ولا تأذن في بيته إلا بإذنه** » .

شكى أحد الأزواج زوجته التي أعرضت عنه ونكّدت عليه لأنه لم يأذن لأخيها دخول البيت في وقت هو لا يحب أن يزوره أحدٌ فيه ، فقلت أين هذه الزوجة من زوجة شريح القاضي ، فلتقرأ ولتتعلم ولتتق الله تعالى .

فيا أيتها المرأة المسلمة ! زوجك ثم زوجك ثم زوجك ، اجعلي همك كله

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨) وأبو داود (١٩٠٥) وابن ماجة (٣٠٧٢) والدارمي (١٨٥٧) .
(٢) صحيح مسلم بشرح النووي (٨/ ٣٤٠) .

في طلب مرضاته ، والتودد إليه - حتى لا تدعو عليك زوجته من الحور العين بقولها : « **قاتلك الله** » وكوني له مطيعة قانتة ، سباقة إلى كل ما يحب ويرضى ، حتى يفهم تمامًا أن حبك له أغلى عندك من كل شيء ومن أي مخلوق آخر .

(هذه هي الزوجة البرّة الودود التي يريدها الإسلام ، راعية لبيتها ، وفيّة لزوجها ، حريصة على دوام العشرة بينهما ، وإذا ما هبّت على حياتهما الزوجية رياح مكدِّرة سارعت إلى تنقية الجو بالتودد الصادق والتفاهم الحكيم ، ولا تسمع إلى وسوسات الشيطان ونزغات النفس الأمارة بالسوء ، فتسارع إلى طلب الطلاق من زوجها ، ذلك أن عقدة الزوجية أجل وأكبر من أن تنفصم عراها لخلاف عارض أو لسوء تفاهم ناشز) (١) .

فلعل المسلمة العاقلة الدَّينة تتخذ من زوجة شريح القاضي القدوة الحسنة في سلوكها الرفيع هذا ، وتحرص على فعل وقول كل ما يحب زوجها ، لإيمانها التام بأن هذا هو طريقها إلى جنة ربها ، وإلا فقد أخطأت الطريق .

خامساً : أم الزوجة ودرس لنساء المسلمين :

ماذا قالت أم زوجته له ؟ قالت : « كيف رأيت زوجتك ؟ قلت : خير زوجة . قالت يا أبا أمية إن المرأة لا تكون أسوأ حالاً منها في حالين :

إذا ولدت غلاماً أو حظيت عند زوجها .

فوالله ما حاز الرجال في بيوتهم شراً من المرأة المدللة ، فأدِّب ما شئت أن تؤدب ، وهذب ما شئت أن تهذب »

---

(١) شخصية المرأة المسلمة ـ محمد على الهاشمي ـ ص (١٨٢)

أين اليوم مثل هذه الأم الناصحة العاقلة ، التي لا تعرف إلا الحق ولا تقف إلا مع الحق ؟!! نحن في حاجة إلى مثل هذه العقلية الواعية التي لا تعرف إلا الحق ، وتسلك في تربية أولادها أنجح الأساليب .

(وكم من أسرة يعود الفضل في نجاح تربية أولادها إلى الأم الذكية اللبقة النبيهة الحصيفة التي أدركت مسؤوليتها تجاه أولادها ، فقامت بها خير قيام ، فأنشأت أولاداً عادوا بالخير على والديهم وعلى المجتمع والناس .

وكم من أسرة أخفقت في تربية أبنائها ، لأن الأم لم تدرك مسؤوليتها تجاه أولادها، فأهملتهم ، فكانوا شراً مستطيراً وعذابًا واصبًا على والديهم وعلى المجتمع والناس .

وما كان الأولاد ليكونوا شراً محضًا لو أن الوالدين ـ ولاسيما الأم ـ عرفا مسؤوليتهما إزاء أولادهما ، وقاما بتبعات تلك المسؤولية خير قيام) [١] .

إن مثل هذه النوعية من الأمهات اللاتي يوصين أزواج بناتهن بحسن تأديب وتهذيب بناتهن وعدم تدليلهن التدليل الذي يسيئ إليهن ويهضم بعض حقوق الزوج ، هن من الأمهات الحصيفات الواعيات ، اللاتي من باب أولى أحسنّ تربية بناتهن ونصحنهن ، وزودنهن بكل نافع لهن في شؤون بيوتهن وأزواجهن وأولادهن .

إن الأم العاقلة هي التي (تفتح عين ابنتها دومًا على ما يسُر زوجها ويسعده ، وتشجعها على القيام بواجباتها الزوجية والأسرية على أحسن وجه ، وإن رأت من ابنتها شيئًا من تقصير أو تراخٍ أو لا مبالاة ، سارعت إلى نصحها وتسديدها ومساعدتها لتلافي ذلك التقصير ، بحيث لا تترك لصهرها على ابنتها

---

(١) المصدر السابق ص (٢٢٦) .

مأخذاً يهوّن من شأنها ، أو يصغرها في عينه .

ولا تنسى أن تنوّه بين الحين والحين بمزايا وإيجابيات صهرها ، ترددها على مسامع ابنتها ، لتزيدها التصاقًا به ، وحباً له ، ورضًا بما قسمه الله تعالى لها .

وبذلك تكون خير معوان لابنتها على تماسك حياتها الزوجية واستمرارها وإشاعة السعادة ، في أجوائها .

وتلتزم الحماة المسلمة العدل في مواقفها وأحكامها إن نَشِب خلاف أو سوء تفاهم بين ابنتها وزوجها ، أو رأت من ابنتها تقصيراً مخلاً في حسن تبعلها زوجها ، أو في قيامها بواجباتها المنزلية ، أو في مراعاة رغبات الزوج المشروعة ، فلا تتحيز لابنتها ، بل تنطق بكلمة الحق والعدل ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ﴾[الأنعام : ١٥٢] . وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴾[الأحزاب : ٧٠] .

وإن رأت من ابنتها ميلاً إلى الابتزاز والإسراف والإنفاق بغير حساب ، ولم تُجْدِ نصيحتُها لابنتها ، نطقت بكلمة الحق ، مبينةً لابنتها خطأها، وتجاوزَها الحدّ المشروع الذي بيّنه الشرع الحنيف للإنفاق ، مستهدية بقوله تعالى في وصف عباد الرحمن المهتدين المكرّمين : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا ﴾ [الفرقان : ٦٧] .

وإذا ما رأت في شخصية ابنتها قوةً طاغية ، وميلاً يتحيف من كرامة الرجل وقوامته ، سارعت إلى إفهام ابنتها بصريح العبارة : أن الرجال قوّامون على النساء ، طبقًا لقوله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ [النساء : ٣٤] ، وأن القِوامة للرجل على

المرأة لسببين جوهريين ، لا ينبغي للمرأة أن تنساهما أبداً ، وهما الأفضلية والإنفاق ﴿ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ﴾[البقرة : ٢٢٨])[١] .

سادساً : وفاء الزوج لزوجته :

وهذا ظاهر من قول شريح القاضي : « فمكثت معي عشرين عامًا لم أغضب عليها في شيء إلا مرة ، وكنت لها ظالمًا »

وقد كان النبي ﷺ سيد الأوفياء ،وهذا يظهر جليًا في حديثه عن خديجة ﵂ بعد أن ماتت .

فعن عائشة ﵂ قالت : ما غرت على أحد من نساء النبي ﷺ ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ثم يبعثها في صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة ، فيقول : « كانت وكانت ، وكان لي منها ولد »[٢] .

وعنها ﵂ أيضًا قالت : استأذنت هالة بنت خويلد ـ أخت خديجة ـ على رسول الله ﷺ ، فعرف استئذان خديجة فارتاع لذلك ، فقال : « اللهم هالة »[٣] .

أي اللهم اجعل المستأذن هالة . ويظهر من ذلك شدة وفائه ﷺ لخديجة ﵂ وذكره لها بالطيب من القول والفعل .

قالت عائشة ﵂ أيضًا : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البيت

---

(١) المصدر السابق ص (٢٣٤ ، ٢٣٥) .
(٢) رواه البخاري ومسلم والترمذي .
(٣) رواه مسلم وغيره .

حتى يذكر خديجة ، فيحسن الثناء عليها ، فذكرها يومًا من الأيام فأخذتني الغيرة ، فقلت : هل كانت إلا عجوزاً قد أبدلك الله خيراً منها ؟! فغضب ثم قال : « **لا والله ما أبدلني الله خيراً منها ، آمنت بي إذكفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها** »

ونحن نعلم جميعاً أن خديجة ﵂ نصرت رسول الله ﷺ في وقت عزَّ فيه النصير .

وإننا إذ أردنا أن نعرف شمائل الناس ونعوت الخلق ، نختبرهم وقت المحن والشدائد .

جـزى الله الشـدائد كل خـيـر عـرفت بهـا عـدوي من صـديقي

والنبي ﷺ الزوج الوفي لم ينس لخديجة ﵂ مواقفها النبيلة معه ، في وقت كان وحده وكل الناس ضده ، فكان منه هذا الوفاء .

ومن الأزواج (من قلَّ حظه من الوفاء ، فلا همَّ له من زوجته سوى نصيبه منها ، فلا يحفظ حقها إلا ما دام راغبًا فيها ، وما دامت في شرخ شبابها ، وغضارة نضارتها ،وكامل صحتها ، ووفرة مالها .

فإذا ما كبرت ، أو مرضت ، أو افتقرت ـ أعرض عنها ، ونسي ما كان من سالف الود بينه وبينها ،ولم يقدِّر لها صبرها عليه ، وقيامها بحقه .

ومن قلة الوفاء أن يطلِّق الرجل زوجته إذا مرض مرضًا يخشى منه الموت ؛ كي يحرمها الميراث .

ومن ذلك أن يسافر عنها كثيراً دونما حاجة للسفر .

إلى غير ذلك من صور قلة الوفاء التي تدل على لؤم الطبع ، وقلة الرعاية لحفظ الذمام .

أما كرام الناس ، وأهل الوفاء منهم ـ فإنهم يحفظون الود ، ولا ينسون

الإحسان مهما تقادم عليه الزمان .

ومن أولى ما يُعنون بحفظه حق الزوجات اللواتي وهبنهم البر ، والإخلاص، وحسن المعاشرة ؛ فترى أولئك الكرام يحفظون عهود الود ، فيذكرون زوجاتهم بالخير ، ويدعون لهن ، ويقفون إلى جانبهن بالمواساة إذا مرضن ، أو كبرن ، أو أصبن ببلية ؛ بل ويحفظون حقهن بعد مماتهن) (١) .

انتهى الجزء الأول من هذا الكتاب، والله أسأل أن ييسر بالجزء الثاني إن شاء الله.

وآخر دعوانا أن الحمد رب العالمين.

وصل اللهم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) من أخطاء الأزواج ـ محمد إبراهيم الحمد – ص (١٠٥، ١٠٦)

الفهرس

الفهرس

الموضوع	رقم الصفحة
تقديم	٥
موقف خديجة رضي الله عنها	٩
١ـ مكانة خديجة وفضلها رضي الله عنها	١١
٢ـ موقف الزوجة من زوجها إذا ألمَّ لها شيء	١٤
٣ـ عظم مكانة الزوج	١٦
٤ـ أهمية مكارم الأخلاق	١٩
٥ـ أهمية إدخال السرور على المسلم	٢٠
٦ـ المرأة بين نقصان العقل ورجاحته	٢٣
موقف أم سليم رضي الله عنها عند وفاة ولدها	٢٩
١ـ مكانتها وفضلها رضي الله عنها	٣٣
٢ـ الاستعلاء بالإسلام عما عداه	٣٥
٣ـ دور الزوجة فى تسلية زوجها عند المصائب	٣٧
٤ـ دور الأم فى تربية الأولاد	٣٩
٥ـ أهمية تزين المرأة لزوجها	٤٢
٦ـ الصبر فى حياة المسلمة	٤٤
وصية إمامة بنت الحارث لابنتها عند زواجها	٤٩
١ـ وصايا الأبوين لبناتهم	٥١

٢- نظرة عامة إلى حقوق الزوج فى الإسلام ٥٣
٣- كيف تسعدين زوجك ؟ ٥٥
موقف صفية بنت عبد المطلب عند وفاة أخيها ٦٥
١- من هى صفية بنت عبد المطلب ؟ ٦٦
٢- دورها فى الجهاد ٦٦
٣- دورها فى تربية ولدها الزبير ٦٩
٤- الرضا بقضاء الله ركن من أركان الإيمان ٧١
موقف أسماء بنت أبي بكر مع ابنها قبل مصرعه ٧٧
١- من هى أسماء بنت أبى بكر رضي الله عنها ٧٩
٢- المجاهدة الصابرة ٧٩
٣- خدمتها لزوجها الفقير ٨١
٤- الجوّادة السخية ٨٤
٥- الذكية العاقلة ٨٦
٦- الحوار الخالد ـ عبر وعظات ٨٧
موقف نسيبة المازنية عندما بلغها موت ابنها ٩٣
١- من هى نسيبة المازنية ؟ ٩٤
٢- بيعة العقبة الثانية ٩٤
٣- صور من جهادها فى الإسلام ١٠١
٤- المرأة التى تعد الأبطال وتربى الأجيال ١٠٧
٥- فضل الصبر على فقد الأولاد ١١٠

موقف أم حبيبة من زوجها عندما ارتد ١١٥
١- من هى أم حبيبة ؟ ١١٦
٢- إسلامها وخروجها على أهلها ومجتمعها ١١٦
٣- ابتلاء الزوجة المؤمنة بزوجها ١١٨
٤- الفرج بعد الشدة ١٢٠
٥- الضرة صاحبة القلب النقى ١٢٧
موقف ابنة سعيد بن المسيب من زوجها صبيحة زواجهما ١٣٩
١- قصة زواج سعيد بن المسيب ١٤٠
٢- حرص الزوج على تحصيل العلم الشرعى ١٤٢
٣- صور من سيرة المسلمة العالمة ١٤٤
٤- أهمية العلم وطلبه ١٤٧
٥- عرض الرجل وليته على الرجل الصالح ١٤٩
موقف هاجر عليها السلام ١٥٥
١- التوكل .. معناه، أهميته، ومنزلته في الدين ١٦٢
٢- فضل التوكل على الله وجزاء المتوكلين ١٦٤
٣- أقسام التوكل ١٦٦
٤- سمات المتوكلات على الله ١٦٦
٥- إبراهيم وهاجر عليهما السلام .. المثل والقدوة في التوكل ١٧٠
٦- أهمية اختيار الزوجة الصالحة ١٧١
٧- طاعة الله تعالى أولى عند المسلمة من كل شيء ١٧٧
٨- أهمية دور الأب في تربية الأولاد ١٨١

٩ـ ثقة المسلمة بالله وتمام الاستسلام له عز وجل ١٨٣
١٠ـ فضل زمزم ١٨٥
موقف زوجة شريح القاضي ليلة زفافها ١٨٩
١ـ صفات الزوجة الصالحة ١٩٣
٢ـ طلب رضا الزوج .. طريق المرأة إلى الجنة ٢٠١
٣ـ المرأة تذكر زوجها بالله ٢٠٤
٤ـ من فقه الزوجة الصالحة ٢٠٦
٥ـ أم الزوجة ودرس لنساء المسلمين ٢٠٨
٦ـ وفاء الزوج لزوجته ٢١١
الفهرس ٢١٧

تم بحمد الله

من اصدارتنا للأستاذ

عصام محمد الشريف

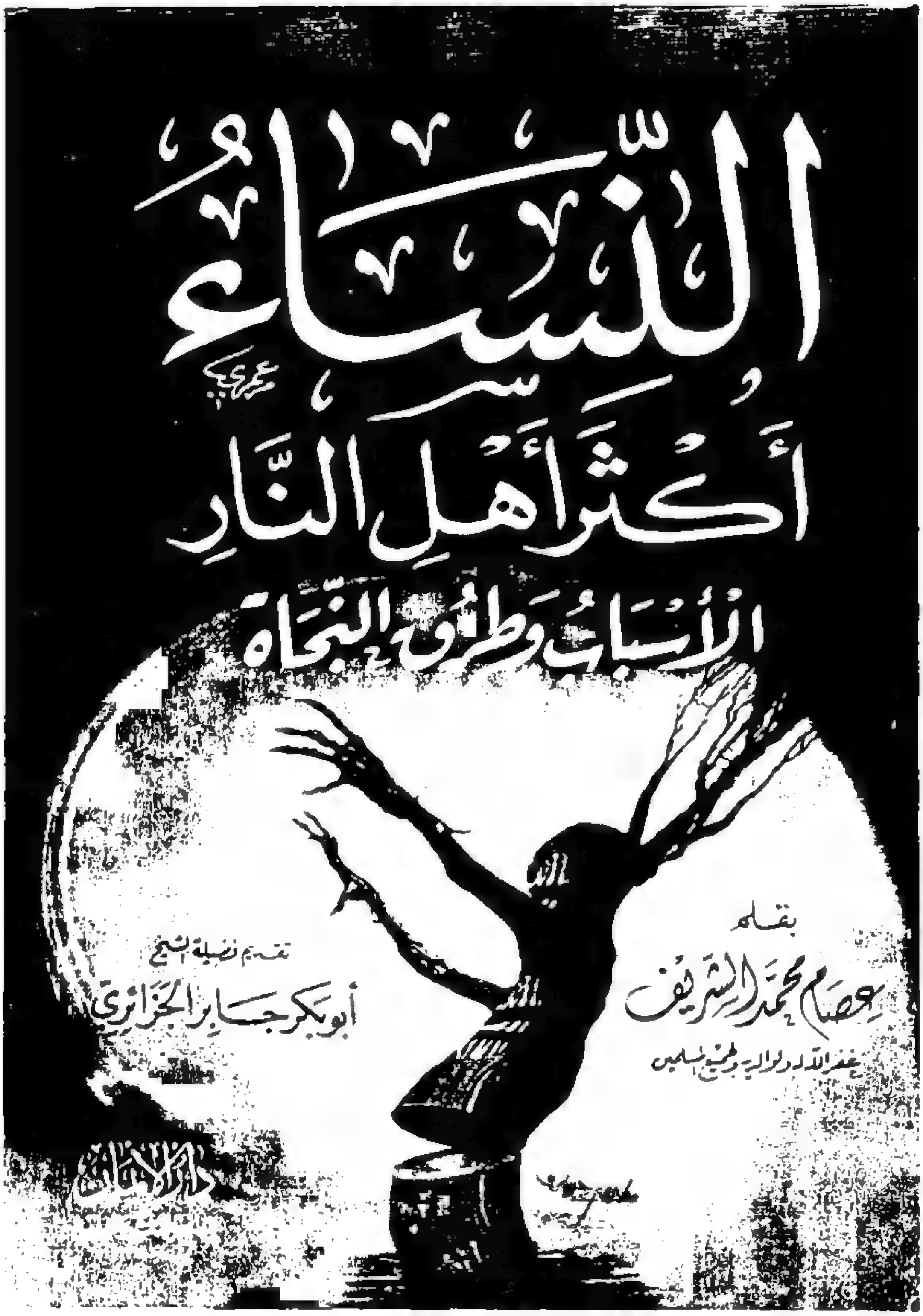

دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية

للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس ٥٤٥٧٧٦٩٠ - تليفون ٥٤٤٦٤٩٦٠

E-mail: dar_aleman@hotmail.com

من اصدارتنا للأستاذ
عصام محمد الشريف

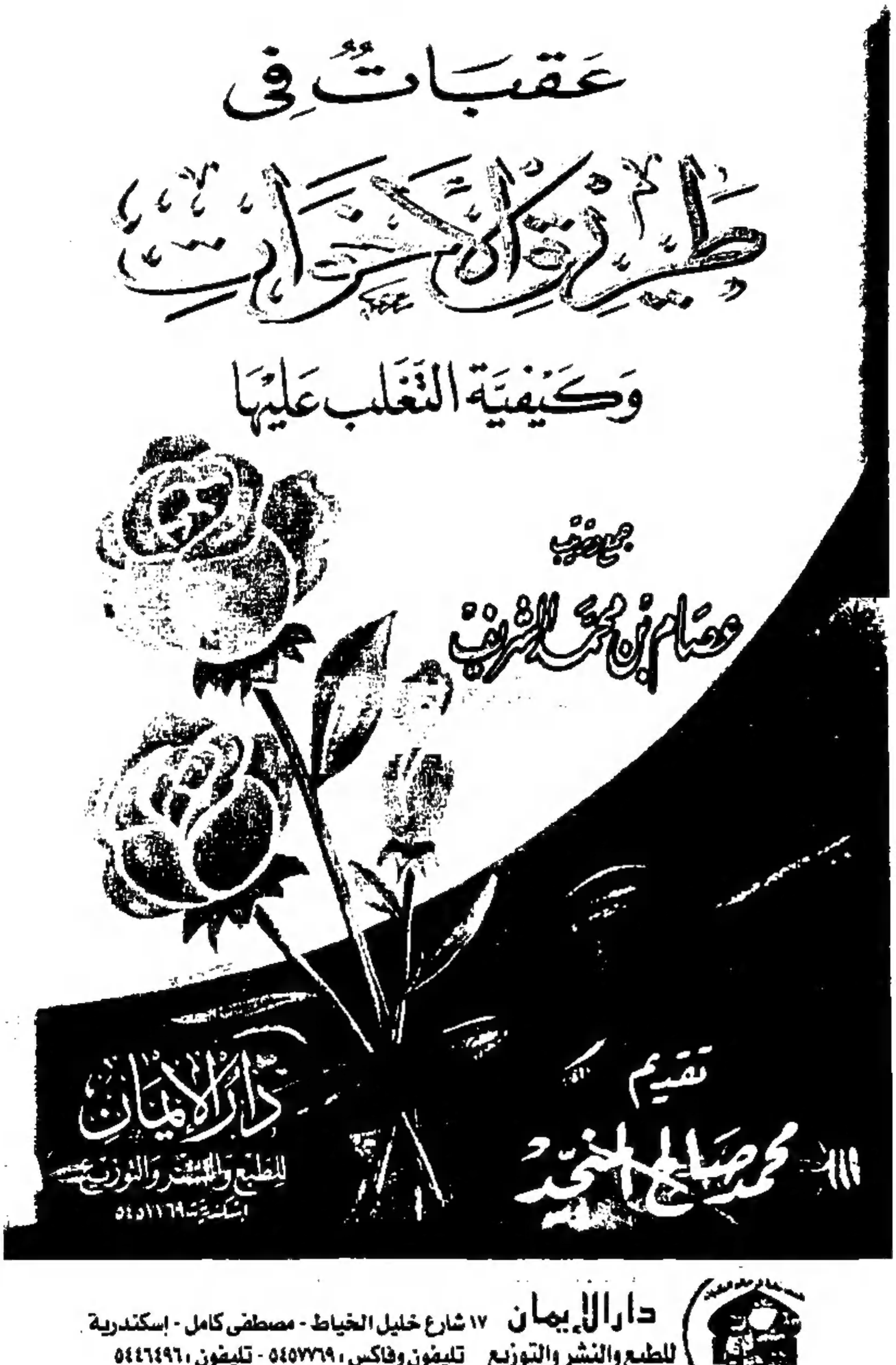

دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

من اصدارتنا للأستاذ

عصام محمد الشريف

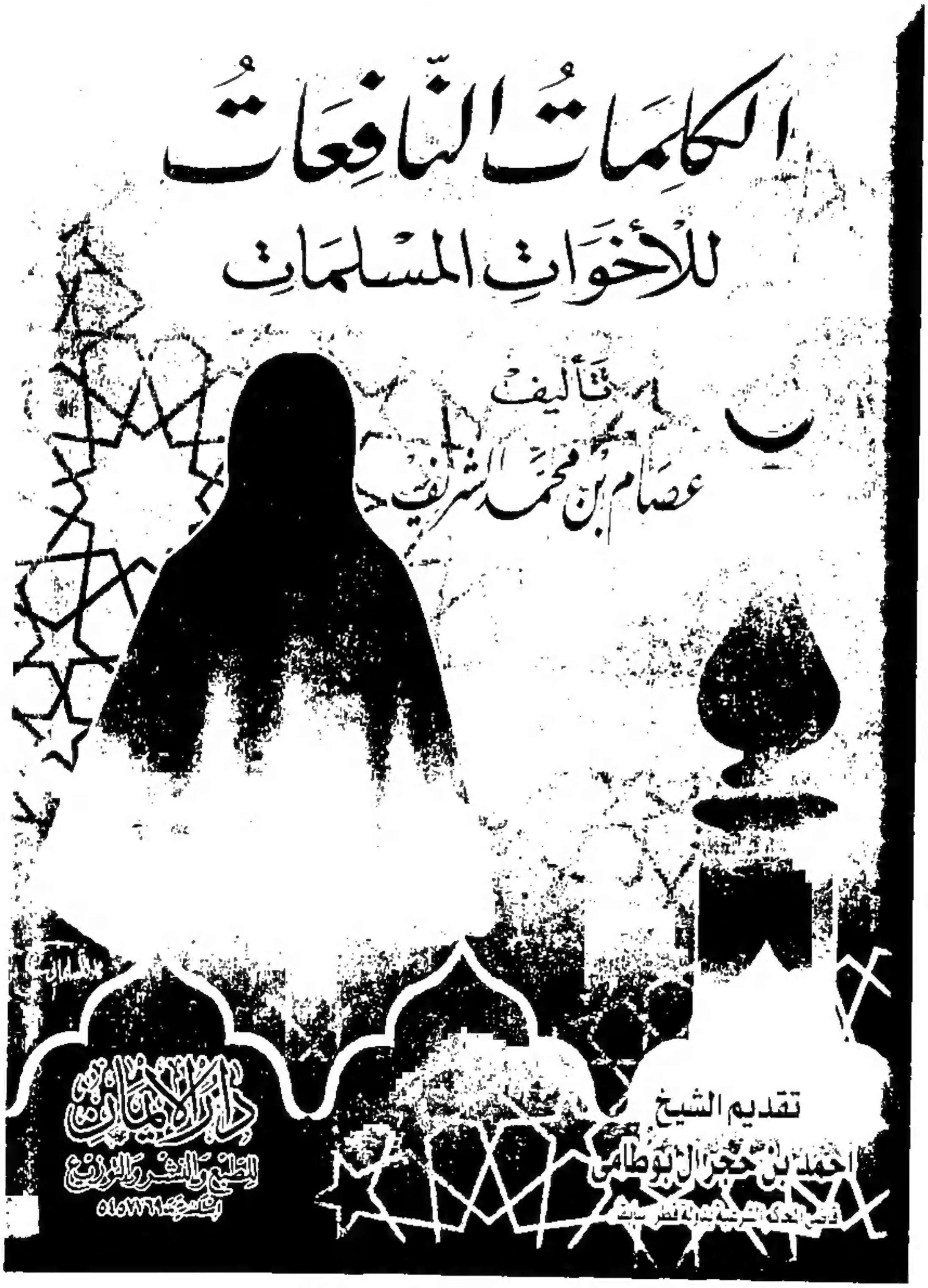

دار الإيمان ١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
للطبع والنشر والتوزيع تليفون وفاكس ٥٤٥٧٧٦٩ - تليفون ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail: dar_aleman@hotmail.com

دار الإيمان
للطبع والنشر والتوزيع
١٧ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦

دار القمة
١٩ شارع خليل الخياط - مصطفى كامل - إسكندرية
تليفون وفاكس: ٥٤٥٧٧٦٩٦ ت: ٥٤٤٦٤٩٦
E-mail:dar_aleman@hotmail.com